
رواية
بنات الباشا
نورا ناجي
أجيال للنشر والتوزيع

بنات الباشا



إخراج داخلى : شيماء محمد

تصميم غلاف : عبدالرحمن الصواف

مراجعة لغوية : سارة قويسي

رقم الإيداع 25614 / 2017

ISBN 978 - 977 - 773 - 036 - 5

الطبعة الأولى 2017

هاتف : 01224242437 (+2)

Dar.Ajial

بنات الباشا

رواية

نورا ناجي

دار أجيـــــال

إهداء إلى

فاتيما

منى

الجميع يعلم ما الذي حدث لنادية، لكن لا أحد يجرؤ على الحديث..

أقف في مكاني المعتاد بالقرب من النافذة الصغيرة التي لا يلاحظها أحد في غرفتي في الكوافير، والتي تكشف لي الطابق السفلي كله، حيث تقع الغرفة في نهاية الضلع الثالث من الدور الثاني؛ غرفة منزوية صغيرة، صمّمها الباشا برواق وهدوء.

غرفتي التي تضمّ مساحتين صغيرتين متجاورتين، في كل منهما حوض استحمام وقاعدة أسمنتية تجلس عليها النساء؛ استعدادًا لإزالة الشعر بالحلاوة، ثم التكييس والحمّام المغربي والتركي، وغيرها من الأسماء التي كتبها الباشا بنفسه في القائمة المعلّقة على جدار كامل.



أمّا خارجهما، فهناك صالة ضيّقة تضم «ركنة وثيرة ومائدة مشغولة بالأرابيسك»، عليها أكواب فضيّة وإبريق عربي يحتوي على مشروب الكركدية بدلًا من زجاجة النبيذ الموجودة في الغرف المماثلة في دول أخرى.

الباشا يسافر كثيرًا، يعرف كل شيء، ويحبّ تطوير الكوافير، أو «البيوتي سنتر»، كما يرى في المراكز العالمية خارج مصر.

جدران الغرفة سميكة وعازلة للصوت، عليها لوحات ملونة تسُرُّ الناظرين، مصابيح موزعة باحتراف لتوزيع إضاءة هادئة تصيبني في نهاية اليوم بالزغللة والغثيان.

أجلس في مكاني وراء «كاونتر صغير، أنتظر دخول سيدة أو أكثر لأقوم بتحضيرهن.

لا أحد يدخل الغرفة من العاملين، ولا الباشا نفسه إلا لظروف طارئة، إنّها قدس الأقداس، التابو المحرم الذي تتعرى فيه النساء تمامًا وتنكشف، المعبد البعيد المنزوي، وأنا راهبة هذا المعبد، المخوّلة لكشف العورات، وإزالة الأوساخ، وتغيير الروح نفسها لو شئنا الدقة.

أعرف كل شيء عن كل شيء، أراقب الجميع من نافذتي المنزوية ولا أحد يراني، أسمع الهمسات، وأتابع النظرات المختلسة، أستطيع قراءة الأفكار دون أن



يتحدّث أحد، أعرف علاقة كل شخص في الكوافير بالآخر، أعرف المكائد التي تدبر، والمؤامرات التي تحاك، أجلس بهدوء في انتظار ما سيحدث، دون أن أتدخّل، أو أعلّق أو حتى أندهش.

يستدعيني الباشا إلى مكتبه مرّة كل شهر ليعطيني راتبي الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع.

أعتمد اعتمادًا كاملًا على البقشيش السخيّ الذي تمنحه لي النساء، يشعرن بالذنب لاضطراري إلى الجلوس أمام سيقانهنّ المفتوحة، أزيل الشعر بلا تأفّفٍ ولا تعبيرٍ، تستحي بعض النساء وتتبجّح بعضهن، تتلوّى بعض النساء مُحْنًا، ويتخشب بعضهن الآخر؛ لكنّهنّ جميعًا يغدقن عليّ بالمال، أتناوله ولا أشكر، أكتفي بهزّة رأس صامتة، وأذهب لأنتظر التي تليهن.

كيف يمكن ألا أعرف ما الذي حدث لنادية؟

يستدعيني الباشا بعد الحادث كما فعل مع الجميع، لكنّه على عكس ما فعل معهم لا يقول شيئًا، يطرق برأسه صامتًا، فأستمر في التحديق إلى وجهه الجميل دقيق الملامح، الباشا وسيم جدًا، إنّه الأوسم في المدينة كلها، المدينة الصغيرة التي يعرف سكأنّها بعضهم بعضًا، تسير النساء أمام الكوافير أملًا في رؤيته،



يرضين بدفع ضعف المبلغ الذي يدفعنه في أيّ كوافير آخر ليكونن معه في المكان نفسه.

تأتي النساء في كامل أناقتهنّ، يرتدين ملابسهن وكأنّهن ذاهبات إلى حفل الأمير، يضعن مكياجًا كاملًا حتى ولو كُنّ يردن إزالة شعر وجوههن.

الغنيّات يدفعن ثلاثة أضعاف ليصفّف لهنّ شعرهن بنفسه، يلمس خصلاته بشكل مدروس، يتعمّد مداعبة ذقونهن، أو تمرير أنامله على أعناقهن خلسة، فيكدن يصلن إلى النشوة.

أراقبهن من نافذتي وهُنّ مستسلمات ليديه في الغرفة الخاصة التي يعمل بها في مواجهتي تمامًا، حائطها زجاجي كبير ليشرف على المركز رغم أنّه لا يرى شيئًا، على عكس ما أراه أنا من نافذتي الصغيرة، تهتزّ النساء حرفيًا على مقاعدهن أمامه، يلتصق هو بجانب المقعد، رائحته الحلوة تزكم أنوفهن، يغمضن أعينهنّ، ينتهي من تصفيف الشعر فلا تودّ المرأة منهنّ النهوض.

هو مصفّف شعر محدود الموهبة، لكنّه في غاية الذكاء، ساحر يعرف كيف يستغلّ سحره الذي يكفل له كل هذا النجاح.

تتأمّله العرائس وهو يعدلّ لهنّ طرحتهنّ، أو يضفي لمسة أخيرة على تسريحة شعرهنّ بهيام، يتمنّين لو كان هو العريس المنتظر، ربما تخيّلنه فوقهنّ بدلًا منه.



إنّه الرجل الأوّل في حياة العذراوات في المدينة ولو خيالًا، ساطع الوجه، بُنّي الشعر، أزرق العينين، لا مثيل له في المدينة.

أنا فقط التي لا أتأثّر برؤية الباشا، ولا تهزّني عيناه ولا شعره، أرفع رأسي دون أن ألتفت له، يرتبك كما يفعل دومًا في حضرتي، يسألني: هل رأيت شيئًا؟ هل سمعت شيئًا؟

أبتسم نصف ابتسامة، كيف لم أسمع ولم أرَ والحادث وقع في حجرتي، لقد اختارت الفتاة غرفتي بالذات لتنتحر، لم تلتفت لطيبتي معها طيلة فترة وجودها هنا.

كان من نصيبي أن أراها عارية ملقاة في دمائها وأنا أفتح الباب صباحًا، لقد قضيت ساعتين ونصف أحاول إعادة حوض الاستحمام الذي غطست فيه ولم تقبّ إلى ما كان عليه مسبقًا.

- رأيت ما حدث مثل الجميع، لقد قلت كل شيء في المحضر الرسمي.

يهزّ رأسه والعرق يتصبّب من جبينه، قوتي تزعجه، يعلم أنّي أعلم، ويعلم أنّي أراه كما أرى الجميع، عُراة منزوعي شعر العانة والإبطين، إنّهم ضعاف هاشون



في وجودي.

لا شيء يمكن أن يجعله يُخرج مني كلمة، لكنّه يضيف بلا داعٍ:

- أرجو عدم التحدّث في هذا الأمر مع أحد.

أومئ برأسي ولا أردّ، وكأنّ الخبر لم ينتشر في المدينة في لحظتين، نادية التي لا يعرفها أحد، ولم يرَها أحد، تحوّلت إلى نجمة ساطعة فجأة، التهمة المحضرة سلفًا لكل الفتيات اللاتي ينتحرن أعدت لها، والشائعات لا تعرف الرحمة، إمّا شائعة ضخمة وصادمة وإمّا فلا.

أنهض من مكاني دون أن ألتفت إليه، أخرج من مكتبي فيوقفني من جديد:

- منى، ألم تخبرك بشيء قبل أن...

أظلّ ثابتة لحظتين، أجزّ على أسناني حتى لا تخرج منّي شخرة محترمة يسمعها الجميع، أغلق الباب في هدوء وأعود إلى مقعدي، أنظر إليه وأبتسم، وأرى الهلع في عينيه فأرضى.

- باشا، لا أعتقد أنّ علينا الحديث في هذا الأمر مرّة أخرى، أنا أعلم، وأنت تعلم، والفتاة ماتت وانتهى الأمر.

الباشا لا يردّ، أشعر أنّه سيفقد وعيه الآن، يشير لي بيده أن أخرج، وكأنّه يطعنني



بسكيّن، أحاول النهوض بجسمي الممتلئ وركبتيَّ اللتين لا تقويان على حملي، الابتسامة تبهت على جانب فمي، والتجاعيد تزداد وضوحًا على جانبيّ عينيّ.

أعود إلى حجرتي، أشغل المكيّف رغم أنّ الطقس جيد؛ لأتمكّن من شرب سيجارة دون أن أفسد أجواء معابد بوذا الذي يعتمده الباشا للحجرة، أمص الدخان بسرعة قبل أن تأتي عميلة حمقاء لا تعرف ما الذي حدث في هذه الغرفة بالذات.

أفتح درج مكتبي بتلقائية، فأجد سلسلة ذهبية يتدلى منها صليب صغير، أرفعها أمام عينيّ، أعتقد أنها من الذهب الصيني الرخيص، معها ورقة بخط نادية الطفولي، رسالة لي أنا بالذات:

إلى منى، صليب بدلًا من الذي فقدتِه يومًا.

تدمع عيناي للمرة الأولى منذ رحيلها، أعلقه حول رقبتي وأنهض من مكاني لألقي نظرة داخل حوض الاستحمام الذي لفظت فيه نادية أنفاسها الأخيرة، وحدها في ظلام أسوأ ليلة مرت على المدينة، أراه أبيض ناصعًا وكأنّ شيئًا لم يكن، لكنّ الرائحة لا تزال كما هي، رائحة صديد عطنة احتلت فتحتي أنفي وعشّشت فيهما، لا أعرف إن كان بسبب قيامي بتنظيف المكان بنفسي، أم أنّني أتوهّم هذه الرائحة.



أمصّ الدخان أكثر من السيجارة؛ آملة أن تتغلّب عليها، أشعل عود بخور مستورد من مجايب الباشا، وأجلس في مكاني لأنتظر.

أعرف أنّ أوّل مَنْ ستدخل ستكون نهال..

أنتظرها وأُحضّر المكان لقدومها، نهال التي هاتفتني 80 مرّة منذ أن حدث ما حدث، والتي تمرّ بسيارتها كل يوم بجوار الكوافير المغلق منذ الحادث إلى اليوم علّها تلمح شيئًا.

تصدق توقعاتي بعد خمس دقائق، أراها تدخل من الباب والباشا يستقبلها بنفسه بترحاب، أوّل زبونة بعد الحادث، مجرد دخولها سيجعل الأخريات يتجرّأن على العودة.

أبتسم بجانب فمي، نهال التي اعتدن السخرية والهمز واللمز عليها صارت منقذتهن.

تصعد نهال والباشا يسندها بذراعه، تدخل معه إلى مكتبه قليلًا، أعود أنا إلى مقعدي واثقة أنّها ستهرع إليّ بعد قليل، نهال تأتي لهذه الغرفة فقط كل مرّة، لا يعنيها باقي الغرف في شيء، هذه الغرفة هي ما يهمها وهي رأس مالها وحياتها.



خمس دقائق بالضبط وتدخل نهال، أبتسم لها وهي تحكم إغلاق الباب، تجلس على الأريكة وتخلع حذاءها، تشعل سيجارة وتتلفّت حولها وتقول: هنا؟

أجيب بهزّة من رأسي، نعم..

تنهض إلى الغرفة الصغيرة التي شهدت موت نادية، تقف على الباب دقيقة وساقها تهتزّ بعصبية، تعود إليّ من جديد وتسألني، لماذا؟

- لا أعرف فعلًا، كنت أجلس معها ليلتها، لم تبدِ شيئًا، كما هي، نادية الهادئة الحزينة، لم تخبرني بشيء فعلًا، كل ما طلبَتْه أن أنزع شعر جسمها كله، فعلت كما طلبت في خمس دقائق، كانت كالعروس، ربما علمت أن الجميع سيفحص جسدها بعد ساعات، ربما أرادت أن تبدو جميلة بعد الموت.

- أملك الهواجس نفسها، أريد أن أبدو بخير حال عند تغسيلي؛ لذا آتي إليك كل أسبوع.

- كنت أعتقد أنّ عملك هو ما يحضرك..

تضحك بصوت عالٍ ضحكتها الرنّانة الشهيرة، تنزع ملابسها بلا خجل، وتدخل إلى الغرفة الثانية، تشير للأولى قائلة : أخاف..



أهزّ رأسي بلا كلام، مهما بلغت صلابة نهال، لا أحد يحبّذ الجلوس عاريًا ضعيفًا هشًّا في غرفة كانت مسرح جريمة منذ أيام.

أبدأ عملي بصمت، ترفع رأسي إلى وجهها..

- هل كانت بنتًا؟

ترتفع الدماء إلى رأسي فورًا، ولا أنطق سوى بكلمتين:

- لا أعرف..

- منى، هل تعتقدين أنّها فعلت ذلك بسبب هذا اليوم؟

أُضيّق عيني ولا أردّ، أتنهّد بصوت عالٍ، تزعجني نهال دائمًا، وتزعجني اليوم أكثر.

- ربما يجب عليك أنت أن تخبريني، ألم تذهب إلى المنزل معك؟

- هي التي طلبت..

- حسنًا ما الذي حدث بعدها؟

- لا شيء جلسنا بعدها بشكل عادي، تناولنا القليل من الطعام، ثم نامت، في الصباح كانت قد اختفت.

- في الصباح جاءت إلى هنا، أكملت عملها كما تفعل دائمًا، لم تحكِ لي شيئًا.



- لو لم تحكِ أنت لما علمت.

والباشا؟

- لا شيء، استدعاها إلى مكتبه ليسألها عن غيابها الليلة الماضية، لكنّه لا يحاسبها أبدًا، منحها بعض الأموال، وخرجت لتشتري بعض العصائر، الباشا طيب.

- الباشا طيب؟

- نعم، الرجل في دوامة هذه الفترة، لم يكن قد انتهى من إجراءات استلام فلك ودفنها، حتى ورطته نادية بجثة جديدة، وهذه المرة في الكوافير.

تنفث دخان سيجارتها، أكاد أنتهي فأرفع رأسي إليها، كانت تبكي فعلًا...

- كان يفترض أن أموت أنا..

أطبطب على كتفها، أقول: كلنا سنموت..

- لكنّها ماتت وحيدة..

- نحن جميعًا وحيدون، ما يهمّني ألا أموت أمام أحد، لا أريد أن أموت في انفجار أو في الشارع أو مكان عام، أريد أن أموت في منزلي بصمت.



- ومَنْ سيدفنك؟ ستتحولين إلى فضيحة أخرى عندما يشمّ الجيران الرائحة ويقتحمون بيتك ليجدوا جثة متحلّلة متعفّنة.

أصمت والقشعريرة تغزو ظهري، ما الذي يمكنني أن أفعله؟ هل أستأجر شخصًا ليعيش معي تحسّبًا ليوم وفاتي؟ أكمل ما أفعله بقليل من العصبية فتتوجّع، أعتذر ببعض الكلمات وأنهض، أدعوها للاغتسال قبل الخروج.

أعود إلى مقعدي لأجيب على الهاتف الداخلي، يسألني الباشا: كل شيء تمام؟ أجيبه بنعم، يبدو صوته أفضل قليلًا، أنظر إلى الطابق الأرضي لأجد بعض الفتيات يجلسن على المقاعد العالية تحت أيدي العاملين، أعلم سرّ تحسن صوته، لو كان سألني كنت سأخبره بأنّ كل شيء على خير حال.

الناس ينسون كل شيء، ينسون الانفجار الذي هز المدينة منذ أيام، ينسون موت أحبائهم، ينسون الحوادث المرعبة.

أمنحهم عرضًا جديدًا أو بعض التخفيضات في أسعار صبغة الشعر، أو خدمة مجانية لكل مَنْ تأتي لكيَّ شعرها وسيقفن أمام الكوافير طابورًا، ولو كانت جثة الفتاة لا تزال فيه، سيقفن أمام المشرحة نفسها لو كانت تقيم هذه العروض.

تخرج نهال ببشكير قصير والماء يقطر على الموكيت الفخم فلا تهتم، تتناول ملابسها وترتديها أمامي، أختلس بعض النظرات إلى جسمها فترتعش شفتايّ



رغماً، تخرج حقيبتها وتمنحني بقشيشها الذي يساوي راتبي في أسبوع، أشكرها وأعود للجلوس في مقعدي، تلوح لي بيدها وتخرج، تمرّ على الباشا من جديد في مكتبه قبل المغادرة كما تفعل دائماً، لا أهتمّ حتى بمراقبتها من النافذة أو الباب المفتوح.

تمرّ جيجي من أمام الباب المفتوح، تقف لحظة ثم تعود إليّ، تدخل رأسها من الباب وتسألني كل شيء بخير؟

أجيب: نعم، تنظر باتجاه الغرفة التي أغلقت بابها، تبتلع ريقها وتطرق بأناملها المطلية على حافة الباب بدقّات رتيبة، ثم تستدير، لا تجرؤ على الدخول منذ الحادث، كانت معي وقت أن وجدنا الفتاة ملقاة في الحوض، جريت لاستدعاء الباشا أو أيّ شخص، وعدت لأجدها تربت على رأس الفتاة بغرابة، تنظر إليها نظرة مرعبة، مزيج من الحنو والتوحش، لقد أصابني الخوف للمرّة الأولى، الموت لا يخيفني، البشر هم من يخيفونني فعلاً.

صرخت فيها ألا تلمس شيئًا، فبدت كَمَنْ أفاق فجأة، لتسارع إلى الخروج ودخول مكتب الباشا.

- الكوافير يعجّ بغرباء الأطوار..

ربما أكون أنا أيضًا واحدة منهم..



لا زلت أذكر كلمات الحاج الكبير - أبو الباشا - لي يوم ألتقيته، أحفظه وأحفظ نصائحه العديدة، لا أعرف إن كان هناك شيء في الإسلام يمنع هذا فعلًا، أم أنّها واحدة من خرافات المصريين العديدة، يقول: لا تخبري أحدًا أنّكِ مسيحية، المسلمات لا يحببن الانكشاف على المسيحيات.

رفعت حاجبيّ في دهشة، ما المشكلة في الانكشاف أمام سيدة؟ صدقني هذا ليس ما يجب عليهن أن يخفن منه، لكنّي أومأت بالموافقة فقط.

اسمي يمنحني حصانة ما، يمكن أن يناسب الدينين، أمّا حياتي الخاصة، فلا أحد يعرف عنها شيئًا وهذا أفضل.

أخلع الصليب المعلق في رقبتي دومًا داخل الكوافير، وأداري وشم معصمي بالأكمام الطويلة أو الغوايش الذهبية العريضة التي اعتدت تكديسها بمرور السنين حتى باتت لا تنخلع من يدي.

يعرض عليّ الحاج محوه تمامًا، يعرف صديقًا يمكنه محو الأوشام في حيّ الصاغة، أتردد قليلًا، أخبره أنني قادرة على إخفائه بالكم الطويل واللاصق الطبي والأساور، لكنه يبدو معترضًا.

- أنت تستخدمين يديك، بالتأكيد سيظهر يومًا لإحداهن..

أوافق على مضض، فيصحبني بعد انتهاء العمل إلى الصاغة، ورشة صغيرة بين



المحلات يجلس فيها الرجل للحام الذهب وإعادة صياغته، يبدو أنه يمحي الصلبان في أوقات فراغه أو من أجل خاطر الباشا.

لم يكن الأمر مؤلمًا جسديًا، بعض الحرقان والتورم في معصمي الأيمن، لكن الحرقة في قلبي دامت كثيرًا، كنت أشعر أنني أتنازل كما تنازلت وهربت من قبل، أتنازل عن ميولي، وأتنازل عن ديني، وأتنازل عن اختياراتي.

أقول لنفسي، لا يهم يا منى، أنتِ تحملين صليبك على كتفيك..

من الإسكندرية أصلًا، أمّا ما أتى بي إلى هذه المدينة الصغيرة فأمر يطول شرحه، لكنّني أختصره في ذاكرتي إلى ليلة واحدة، ليلة أتاني فيها أبي بصحبة أبونا من الكنيسة المجاورة، كان أبي عصبيًّا كالعادة، أمّا القسّ فجلس بجواري هادئ الملامح، بشوشًا، كنت أحبه فعلًا، أرتاح لوجوده بجواري، أرقد في الفراش كالمرضى مقيّدة، بينما أميّ تولول بالخارج دون انقطاع.

- يقول أبوك أنّك ممسوسة..

لا أردّ،أدير وجهي ناحية الحائط الجيري الأصفر، أركّز على خربشات نقشتها بالقلم الجاف وأنا صغيرة، أرقام وتواريخ ربما تواريخ الامتحانات في المدرسة لا أذكر.



يطلب أبونا من والدي أن يتركنا، أسمع صوت الباب وهو يُغلق، يظلّ الرجل صامتًا فلا أعرف ما الذي أفعله، أرفع ظهري لأسنده إلى الوسادة الناشفة خلفي، ربطة يدي تضيق فيحرقني جلدي أكثر.

- لست ممسوسة، ربما مجنونة، أريد الذهاب إلى المستشفى..

- يقول أبوك أنّك تتحدّثين بصوت خشن كالرجال، وأنّك ترفضين الزواج، وأنّك، أنّك تميلين للنساء.

- صوتي خشن كما خلقني الله، ونعم أرفض الزواج، أنا أكره الرجال، لا أميل لهم، هذه طبيعتي..

أخفض صوتي، أشعر بالفضول يا أبونا، أحب النساء وجلساتهن وشكلهن، يخفق قلبي وأشعر بأنّني..

- يقاطعني بإشارة من يده، يصفرّ وجهه قليلًا: لا تنطقي، ربما المسّ أرحم، هل تريدين أن تهلكي؟

- أعرف ما يلمّح له، قرأت الكثير عن الأمر منذ بدأ، منذ سنّ التاسعة وأنا أميل للبنات، اعتقد والدي أنّني خجولة، طفلة لا تحبّ الاختلاط، في فترة المراهقة كان يشيد بأخلاقي وأدبي، أنا الوحيدة



التي لا تحادث الأولاد في المدرسة، أو ترسل لهم خطابات سريّة لتفضح في المنطقة بعدها.

- لسنا في العصر الحجري يا أبونا، لقد قرأت كثيرًا.

- ترتعش يدا الرجل أكثر، يتمنّى لو كان الأمر أبسط كمسّ روح شريرة، ربما حينها يتلو بعضًا من ترانيمه ويرش عليّ قطرات من الماء المقدّس، ثم صفعتين على وجههي وانتهينا.

- «لا تضلوا، لا زناة ولا عبدة أوثان، ولا فاسقون، ولا مأبونون، ولا مضاجعو ذكور،. يرثون ملكوت الله».

- الله يحبّ الضالين.

- لكنّه يكره الخطيّة.

- الله خلقني هكذا.

- أنت واهمة، خلق الله كامل، أنت من يُنْقِصه بأفكارك.

- إذن أقتل نفسي؟

- إذن تعودي إلى الله.

ينهض بعصبية، الأمر أكبر منه ومني، التسعينيات في مصر، وقتها كنت أحكم



على نفسي بالقتل أو بالإيداع في مصحّة نفسية، لكنّي كنت أعلم أن هناك عالمًا آخر أفضل من هنا، عالم يمكنني فيه أن أفعل ما يحلو لي بعيدًا عن كل هذه الكراهية.

لكنّي بالتأكيد كنت مخطئة..

أحاول مطّ جسمي المربوط إلى السرير، لسماع ما يدور بالخارج، يتحدّث أبونا مع أبي ببعض كلمات، أسمع صوت أبي يعلو، يتوعدّ بقتلي، بينما يحاول القس تهدئته، يخبره أنّني مريضة، وأنّ لكل شيء دواء.

- العفّة هي العلاج، ربما عليها منح نفسها إلى الدير لفترة.
- أترهبّن؟، تنهار قواي في لحظة، الحقيقة أنّني فكّرت في الشيء نفسه، أحب الكنيسة وأحبّ البقاء هناك، يغادر الجميع بعد القدّاس وأظلّ أنا جالسة مكاني أتأمّل صورة العذراء، جميلة، قويّة، مُلهمة.

النهار يمضي وصوت بكاء أميّ لا ينتهي، في المساء يدخل أبي إلى الغرفة، ينظر إلي وإلى وجهي الشاحب الذي لم أغسله منذ أيام، بجواري بقايا الطعام لم تمسّ، يتنحنح ويعرض عليّ الأمر وكأنّه سيأخذ برأيي.

- يجب أن يكون هذا برغبتك، ستخضعين لاختيارات وستمضين فترة في الدير، ربما يمكنك بعدها اتّخاذ قرارك، إمّا الاستمرار أو العودة.



أقاطعه..

- أوافق.

ينظر إلي بدهشة وكأنّه لم يتوقّع هذا...

- هل، هل أنت متأكّدة؟

- نعم.

يحني رأسه ويبدو وكأنّه شاخ خمسين عامًا، أنا أحبّه فعلًا، لا أكره أحدًا، يبدو أنّني سأليق بالفعل في الرهبنة.

أحاول النوم دون نجاح، قلبي يدقّ في عنقي، أحاول تخيّل حياتي القادمة، هل سيسمح لي بمشاهدة الأفلام الأميركية؟ بارتداء الفساتين الملوّنة؟ بالحديث مع صديقاتي؟ بالذهاب إلى الكوافير؟

أبدأ في الارتعاش قرب الفجر، تدخل أمي عليّ صباحًا لتجدني، أكاد أموت من الحرارة، تصرخ، أسمعها تجري وتسقط الأطباق في المطبخ، تحاول صب الماء المثلّج على رأسي، لا أقاوم، تخلع عنّي ملابسي مع والدي الذي استيقظ فزعًا، ابنتهما الوحيدة، حتى ولو كنت مجنونة، ممسوسة، ضالة، خاطئة، شاذة..

يفكّ أبي قيد ذراعي الحديدي، معصمي ممزق تمامًا، ربما تسمّم من السلسلة



الصدئة، أحاول تجميع أفكاري، أسمع أبي يبكي ويطلب المغفرة من الرب، أتمنّى لو مِتّ الآن وانتهت القصة. لكنّي بالتأكيد لم أفعل.

أسبوع مقيّدة إلى سريري مثل المجانين؛ لأنّ أبي لم يتعوّد على طرق غرفة ابنته قبل الدخول عليها فجأة، ولأنّه أصيب بالرعب عندما رأني مع سارة على السرير.

سارة..

تجلس خلف البيانو بملامحها المجهدة التي لا تدلّ على جنسيّة بعينها، شعرها أسود طويل يحيط بوجهها الخمري، تبدو في الأربعينيات، لكنّ وجهها صافٍ تمامًا، تعزف سارة على البيانو مقطوعات هادئة لعازفين لا أعرفهم، ربما بيتهوفن وباخ وموتسارت كما أقرأ أسماءهم في المجلات الموضوعة على الكاونتر الذي أقف خلفه أستقبل الضيوف المهمين، أسمع صوت عزفها من بعيد، أسمعه الآن مجدّدًا وأنا أهذي من الحرارة..

تنظر إلي وأنا أتأمّل السائحات النحيلات متّجهات إلى حمّام السباحة، يسرن بثقة بالمايوهات بلا قلق، يربطن المناشف حول خصورهن أو لا يربطنها، أتأمّل تفاصيل الأجسام الجميلة، والوجوه الدقيقة، أتعرّق قليلًا، أمدّ يدي لتناول منديل لأجدها لا ترفع عينيها من عليّ أنا.

أشعر بالخجل، فتضحك بجانب فمها، تنتزع وردة حمراء من الباقة أمامها،



وتقترب منّي تتركها أمامي برقّة، ألمح التجاعيد على جانبي فمها وعينيها، تبدو في الأربعينات من هذا القرب.

- أنت جميلة يا منى.

- وأنت أيضًا يا سارة.

ترسل لي بكوب من العصير مرّة، قبلة في الهواء، لا تنزل عينيها من عليّ وهي تعزف..

أصبحت أسعد باهتمامها، أنتظر نظراتها بشغف، أتزيّن خصيصًا لها، أقف أمام المرآة في غرفتي، أتجردّ من ملابسي، وأتأمّل جسدي، أضغط على ثديّ فأشعر بالإثارة، أجيد استخدام الحلاوة كالمحترفات، أزيل شعر جسمي كله كالعروس، فأتلوّى في سريري طيلة الليل، أتحسس نعومة جلدي، وأتخيّل سارة بجواري، حرارة جسمها الخمري الناعم، وشعرها الجميل، وعنقها المذهل.

أتذكّر وسط هلوستي هذا اليوم الساكن قبل مغيب الشمس، في غرفة الخزانات، أخلع حذائي عالي الكعب وأستبدله بحذائي المنخفض الذي يسمح لي بالجري خلف المواصلات في طريقي للعودة إلى المنزل، أشعر بيدين تطوقان خصري من الخلف، أعرف أنّها هي، الغرفة خالية والسكون يعمّ المكان..

تجذبني سارة إليها، جسدي كله يحترق وقلبي يخفق بسرعة قصوى.



تداعب شفتيَّ بأصابعها، تنزلها إلى عنقي، تضغط على صدري برفق، أكاد يغشى عليّ..

أستدير لأواجهها، لكني أشعر بالغرفة كلها تدور، وسارة تبتسم فقط، أستسلم للحظات، ثم أستعيد إدراكي بالمكان والزمان، أدفعها برفق وأجري حافية وأنا أحمل حذائي بيدي، لا أكتشف ذلك إلا بعد ملامستي للأسفلت الساخن في الشارع، قدماي تحترقان..

مثلما تحترق رأسي الآن..

أعود إلى غرفتي التي تدور بي هي الأخرى، أرى وجه أبي وأمّي فوق رأسي من بين عينيَّ المغمضتين..

لا يمكن أن أتخلى عن نفسي من أجل الكنيسة..

على الله أن يحبّني كما أنا أو أتركه أيضًا..

اعتاد أبواي على زيارات سارة، اعتقدا مثلي أنّ مفتاح الحياة في صدرها صليبًا، لم يسألا كثيرًا عن فارق السنّ، لكنّهما سعدا بوجود صديقة أخيرًا لابنتهما المنعزلة عن العالم، حتى كان اليوم الذي اقتحم فيه والدي الغرفة..

أمّا عن وصولي إلى هذه المدينة الصغيرة فكان بالصدفة التامة..



أبدأ في التعافي، نوبة المرض تجعل والديّ أكثر لينًا، أنهض لأرتدي ملابسي وأتحرّك نحو باب الشقّة بطبيعية، يعترضني أبي متسائلًا إلى أين؟

أنظر إلى وجهه مطوّلًا، يشبهني كثيرًا: وجه أبيض دائري طيب، وخدّان ممتلئان، وشعر ناعم.

نملك العينين الخضراوين الضيقتين نفسها، أمّا أمّي فكانت نحيفة سمراء بشعر مجعّد، أبتسم وأقول إلى العمل، أريد أخذ ما تبقّى من راتبي هذا الشهر.

ينظر إلي أبي بشك، فأخبره أنّني بخير، لا أحمل سوى حقيبة يدي الصغيرة، ليس عليّ سوى قميص وتنّورة وحذاء اقترب من الهلاك.

يسمح لي معتقدًا أنّ المرض طهرني، ربما عدت طبيعية، وكأنّه دور برد خرج مع العرق والحرارة.

أتّجه فورًا إلى محطة القطار، أقفز في أوّل قطار بدأ في التحرّك، لا أعرف إلى أين، لكنّني أشعر بالارتياح، يجب أن أهرب من هنا، لا أريد شيئًا، لا أعرف شيئًا، أريد أن أبقى كما أنا، لا أريد أن أخضع لجلسات غسيل مخ ولا الخروج من جلدي.

«لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَرْتَعِبُوا، تَشَدَّدُوا وَتَشَجَّعُوا»



أنزل في أوّل محطة يعجبني شكلها، حوائط بيضاء، وقُبّة عالية بساعة دائرية، ليست مزدحمة جدًا، الهواء لطيف، والناس طيّبون، ليست ريفية ولا حضرية جدًا، هواها لا يختلف كثيرًا عن الإسكندرية.

لا بحر؟ لا مشكلة..

أحاول السير في الشارع الواسع الذي لا أعرفه، أبحث عن كنيسة ربما تمنحني بعض المساعدة، أسأل بعض المارة فيشيروا لي باتجاه نفق مظلم بجوار المحطّة، يشرحون لي الطريق، أجتاز النفق، وأعبر ميدانًا مزدحمًا صغيرًا، إلى شارع واسع يبدو شعبيًا وحميميًا، ربما يمكنني الذوبان هنا بشكل جيد.

أفكّر في أبي وأمي اللذين بالتأكيد يموتان قلقًا علي الآن، قبضة مُرّة تعتصر بطني فتتصاعد المرارة إلى حلقي، أقف لحظة لالتقاط أنفاسي، وأكمل الطريق، تبدو الكنيسة ظاهرة أمام عيني الآن، أدخل بخطوات متردّدة، تستقبلي الأم المكرّسة للكنيسة بابتسامة، راهبة طيبة في منتصف العمر تسألني عمّا أحتاجه، الكنيسة فارغة في هذا الوقت، في الحائط المواجه لوحة ملوّنة كبيرة لمار جرجس يهزم الشيطان..

أتأمّل اللوحة دون ردّ، أكبر لوحة رأيتها لمار جرجس. الراهبة تنتظرني في صبر، أنتبه إليها أخيرًا، أنظر إليها، لا أملك شيئًا لأقوله.



- يا أُمّنا، لا بيت لي ولا مال ولا عمل، أريد المساعدة.

تصمت دقيقة، تحدّق في ملابسي التي لا يبدو عليها علامات الفقر الشديد أو التشرّد، تبتسم في وجهي ثانية، ثم تهرع للكلام مع القس، يعودان معًا، ينظر إلي أبونا مطولًا فيشحب وجهي أكثر، يشبه قس كنيستي في الإسكندرية، لا أخافهما، لا أكرههما، على العكس، أشعر بالراحة والأمان أخيرًا هنا معهما، ومع لوحة مار جرجس.

يقول القس مرحبًا بك، يهمس في وجه أمنا بكلمات، تشير لي دون كلام فأتبعها،

- لا يُسمح لنا باستضافة أحد في الكنيسة، لكن وجهك طيب.

أحاول شكرها بأيّة كلمة لكنّ حلقي الجاف يمنعني، تقودني لحجرة صغيرة بلا أثاث، مقعد خشبي أقرب لدكك المدرسة، وسجادة ممزقة.

كنيسة بسيطة في منطقة شعبية، ربما هذا أفضل ما لديهم.

تنظر لوجهي الممتقع فتقول: سآتيك ببعض الطعام.

أوشك على تقبيل يديها لكنّها تربت على كتفي وتمضي، أنهار على الأرض، أحملق في السقف المتشقّق فوقي، ترى ما الذي يفعله والداي الآن، أبي الطيّب



وأمي المسكينة، يجنّنان هلعًا؟ يبحثان عنّي في الأقسام والمستشفيات، أمّ أنّهما شكرا الرب لتخلصهما من لعنتي؟

في الصباح أخرج بملابسي نفسها التي كادت تخنقني، أسير في السوق المجاور أتأمّل الباعة وبضائعهم، أمرّ على المحلات الصغيرة أسألهم عملًا، أريد أيّ شيء يجلب لي بعض المال، ربما بعدها أتمكّن من استئجار شقّة صغيرة هنا وسط الزحام والصخب والناس.

لا شيء، لا أحد يعرفني، ينظرون إلي ولتنوّرتي القصيرة متعجّبين، ينظرون إلى صليبي المعلّق على نحري بقلق، ينتهي الشارع ولا أجرؤ على عبور النفق المظلم إلى قلب المدينة من جديد..

تتحملني أمنا بصبر في الكنيسة أسبوعين، كدت أيأس وأخجل من العودة في اليوم الأخير، لكني ألمح الكوافير الصغير المقابل فجأة وكأنه برز لي من العدم.

أتردّد لحظة ثم أدخل إلى الكوافير الذي كُتب عليه «كوافير مرمر»، أرى صورة العذراء من جانب الستارة القماشية الحمراء المواربة على المدخل فأطمئن قليلًا، أدخل بسرعة قبل أن أغيّر رأيي.

بالداخل مقعدان متهالكان عليهما امرأتان متقدّمتان في العمر يقصّان شعريهما



ويصبغانه، وورائهما تقف فتاتان بائستان لا تعرفان شيئًا سوى طريقة مزج اللون وفرده على الورق المفضض بدقة.

رفعت أكبرهما عينيها إليّ فتحشرج صوتي لحظة قبل أن يخرج قويًّا وعاليًا.

- هل تريدون فتيات للعمل؟

تشير ليّ بالانتظار للحظة، تتحدّث في هاتف داخلي يربط حتمًا الكوافير بالشقّة التي تسكن فيها صاحبته أعلاه.

- اجلسي ستأتي مدام مرمر بعد دقيقتين.

أنتظر بصبر، أتأمّل صور حنان ترك وسميرة سعيد بشعرهن الهائش ونظرتهن السعيدة، أتأمّل المستحضرات الرخيصة الموضوعة بإغراء في واجهة زجاجية متهالكة، كوافير صغير مسكين لكنّه أفضل من لا شيء.

تأتي المدام بعد نصف ساعة، ممتلئة بملامح طيّبة، أرى الصليب المدقوق على رسخها وهي تصافحني، أتعمد إبراز صليبي أكثر، أخبرها بنصف قصّتي وسكني في الكنيسة وحاجتي للعمل، تبتسم في وجهي بحنوٍ، ثم تنادي على فتاة من الفتاتين:

- شيماء اصنعي لنا كوبين من الشاي..



تنظر إليَّ وتسألني: ما اسمك؟

- منى..

- عاشت الأسامي..

تنهض وتغادر المحل، أراهن أنّها تتّصل بأمّنا في الكنيسة لتسألها عنيّ، تعود بعد عشرين دقيقة لتسألني ما الذي أجيد فعله؟

- أنا أجيد التعلّم، أجيد وضع المكياج، وتصفيف الشعر.

- أملك فتاتين لكل هذا، وأنا أضع المكياج بنفسي للعرائس، هل تجيدين الفتلة؟

- لا، لكنّي جيدة جدًا في التعامل مع الحلاوة..

- تبرق عينيها، تقول إن هذا ما تحتاجه تمامًا،

- ربما أخصّص حجرة بالأعلى لتوضيب العرائس..

يسعدني حماسها، فأتحمّس أنا أيضًا، أنحدر عشرات الدرجات في حياتي العملية، لكنّي لا أهتم..

فليذهب دبلوم السياحة والفندقة إلى الجحيم، ولتبدأ حياتي «كبلانة» كما كانت تسميّهن أمّي، خبيرة عرائس كما سيسميّني الباشا فيما بعد..



أواظب على الذهاب كل يوم من الساعة الثامنة صباحًا، تعلّمني المدام كل شيء، أتعلم حتى كيفية عقد الفتلة واستخدامها لنزع الشعيرات الدقيقة من أصابع اليدين والساقين، تعاملني كابنة، حتى أنها تسمح لي بالانتقال إلى الشقة التي باتت تضمّ حجرتين الآن لتوضيب العرائس بعد الإقبال الذي اشتد في الشهر الأخير منذ أن بدأت العمل معها، أضع متاعي القليل الذي جمعته خلال الإقامة في الكنيسة، وأنام على مرتبة قديمة منحتها لي بكرم.

لكنّي أتطلع لأشياء أخرى، أريد حريتي، أريد شقتي الخاصة، بعيدًا عن العالم الجديد الذي أوشك أن يكون حميميًا، توشك المدام على أن تصبح أمّي، ويوشك أبونا على أن يصبح أبي بسبب إصراره على المجيء وتفقّد أحوالي كل فترة.

أقف على باب المحل بملل، يوم شتوي فاتر لا تفضّله النساء لمضاعفة ألم لسعة الحلاوة على أجسادهن مرّتين. تتوقّف أمامي سيارة فارهة، ينزل منها رجل نحيف، بشعر طويل، وسروال واسع بخصر ساقط، يسألني عن مدام مرمر فأجيبه بأنّها غادرت.

يعطيني كتيًّا صغيرًا ملونًا، إنّه يدعوها لحفل خاص في القاهرة يجمع مصفّفي الشعر في مصر، أشكره وأتابعه وهو يغادر بسيارته وأعود إلى الداخل.



أتصفّح الكُتيّب، أقرأ قائمة أسماء مصفّفي الشعر بالمدينة، يستوقفني اسم الباشا بلا أيّ داعٍ..

- كوافير الباشا، ممم..

أعيد قراءة العنوان بسرعة قبل أن تعود المدام، أحفظه عن ظهر قلب، وأضع الكُتيّب على الرف خلفي، وأعتزم أمرًا.

الطريق طويل طويل..

أغادر النفق المظلم للمرّة الأولى منذ شهور، أصل إلى ميدان المحطة، فأجد تجمعًا للميكروباصات، أسأل أحد التبّاعين على العنوان، فيخبرني بأنّه يمرّ أمام الشارع من الخارج وعليّ أن أكمل بنفسي، أوافق وأنا ألقي بنفسي على المقعد الأمامي بسرعة، أنتظر إلى أن يكمل تحميله قبل أن ينطلق.

يبدأ المطر في الهطول وأنا في الشارع، أحاول لملمة سُترتي الباهتة التي اشتريتها من السوق حول كتفيَّ، في هذه اللحظات أشعر بالرثاء على نفسي وأفتقد بيتنا الدافئ.

أشم رائحة المطر فتهب علي رائحة الإسكندرية لتمزّق قفصي الصدري بسكاكين، أتأمّل كوافير الباشا من الخارج، محلّ صغير لكنّه مغلق بزجاج معتم فاخر، أدفع بابه إلى الداخل وأدلف متردّدة.



المكان ضيّق لكنّه يضجّ بالحركة رغم الشتاء، مقاعد متلاصقة بسبب الزحام، وأكثر من خمس عرائس جالسات في انتظار دورهن، أعرف الباشا الكبير من النظرة الأولى، أتّجه إليه في عزم فيتأملني هو من حذائي الممزّق إلى سترتي المبتلّة، أقف أمامه فيرفع عينيه إليّ:

- مساء الخير، سمعت أن هناك وظائف شاغرة.

- ما الذي تجيدينه؟

- أنا أعمل في كوافير مدام مرمر، أخفض صوتي بخجل وأقول: «بلّانة».

- تجيدين الحلاوة؟

- نعم، أستطيع إزالة شعر المرأة كاملًا في نصف ساعة.

لا يرفع عينيه إلي، يقرأ بعض الأوراق أمامه.

- متى ستتمكنّين من البدء؟

- من اليوم؟

يرفع عينيه مجددًا إليَّ، أين تسكنين؟

- لا مكان.



يبتسم، أفهم هذا الرجل ويفهمني فلا داعي للكذب أو المحاورة..

يمكنك المبيت في الأعلى، يشير إلى سلم حديدي ضيّق يقود للطابق العلوي المخفي عن العيون.

أطلب الإذن في الغياب لساعتين، أفكّر كيف سأنقل أشيائي الصغيرة دون أن يلاحظني أحد، أهرب مجدّدًا دون أسباب سوى عدم رغبتي في الحديث والتبرير.

لكنّي أشعر أنّني على الطريق الصحيح، وكنت كذلك فعلًا.

الكوافير هو بيئتي الطبيعية التي كان عليّ أن أكون فيها طيلة عمري، أنا لست شريرة، لكنّي لا أستطيع التحكّم في كينونتي، لماذا يخلقني الله بهذا الشكل ثم يطلب منّي أن أتوب وأعود إليه، كيف أتمرّد على خلقه وحالي؟ كيف أتمردّ على حقيقتي؟

تجلس النساء أمامي عاريات مطمئنات، تنتصب خلاياي كلها، ويحمرّ وجهي، أداري سخونة يديَّ بسخونة الحلاوة، وهي تنفرد وتنثني على جلدهن، أحسدها وأكتفي باختلاس النظر، ربما بلمس الجلد وشدّه، أشبع رغباتي الحارقة بالتخيّل، أكتفي بهذا ولا أزيد.

لا أحد يلاحظ أو يخطر في باله حتّى أنّ الفتاة المسكينة التي تجلس أمام سيقانهنّ



المفتوحة ليست بهذه البراءة التي تدّعيها، أبتسم عندما أتخيّل للحظة أن يعرفن الحقيقة، سيتساءلن أولًا، ما هو حكم الدين في هذا الأمر؟ هل يتحملّن الوزر؟

على عكس المثليين من الرجال في مصر، تجدّ النساء صعوبة أكبر في ملاقاة صاحبة، خاصة في بلدة صغيرة مثل هذه، حتى لو لاحظت الفتاة أنّها مختلفة، ستكتفي بالزواج والحياة الطبيعية التقليدية، ربما تُرضي رغبتها بالعادة السرية كما أفعل طوال هذه السنين.

أتخيّل سارة كل يوم، لا أرضى عنها بديلًا من بين كل الأجسام التي تمرّ عليّ، حتى نهال بالذبذبات الجنسية التي تخرج من جسمها فيشعر بها الرجال والنساء معًا، لم تفلح في محو وجهها من ذاكرتي.

أفكّر فيها كثيرًا، وأفكّر في أمّي التي ماتت حسرة، وأبي الذي يعيش حياته اليوم في أميركا غير عابئ بشيء، ربما اعتقد أنّني مِتُ، ربما حذفني من ذاكرته، الرجل يملك عائلة جديدة تسرّ الناظرين، ووضعًا لم أكن قادرة على تصديقه.

تمنحني الزبونات البقشيش الوفير، أتمكن من تأجير شقة صغيرة قرب الكوافير، يساعدني الحاج على تأسيسها، أشعر بنظراته تخترق روحي، هذا الرجل يفهمني



ويعرفني ويتجاهل كل شيء، ما يريده هو سير العمل وفقط، لا ينكر أن قسمي الجديد يجلب له ثروات طائلة.

أمّا الباشا الصغير فيملك طموحًا لا يتوقف، كان عمره عشر سنوات فقط عندما جئت أنا هنا، يلعب ويدور، يحاول اختراق القسم السرّي الضيّق بالأعلى لكنّي أنهره فيفرّ ضاحكًا.

تنظر النساء إلى وجهه الجميل ويقلن اتركيه، الباشا الصغير يثير مشاعرهن منذ الصغر، أنظر لهنّ بدهشة وأغلق الباب في وجهه.

لكنّي أسانده دائمًا في طموحاته، يأخذ برأي أبيه ورأيي بعدما أصبحت عضوًا قديمًا دائمًا في العمل، أنصحه باستقدام عاملات جديدات وتطوير تزيين العرائس، نسبة المحجبات تتزايد، فأقنعه بضرورة إنشاء قسم للمحجبات.

عشر سنوات تمرّ وأنا لا أغادر الكوافير إلا لشقتي الصغيرة التي تجاوره، لا أكمل فيها سوى ساعات لأعود وأفتحه بنفسي، بت وكأنّني فرد من أفراده، يعتمد عليّ الحاج في كل شيء، أمّا الباشا الصغير، فيكبر أمام عيني، ربّيته كما أمّه التي لم يرها..

الباشا في عمر العشرين فقط لكنّه يملك عقلَ رجلٍ في منتصف العمر، إنّه



يطغى بحضوره على والده المرهق، يبدأ في فرض آرائه، والدعوة إلى تأسيس مركز كبير وضخم.

يوافق أبوه الحاج على مضض فيبدأ العمل فورًا.

يأخذ منه المركز سنوات من العمل، لكنّه ينجح نجاحًا باهرًا، ينسحب الحاج في النهاية، يكتفي ببعض زيارات، بينما أنعزل أنا في حجرتي الجديدة لا شيء يزعجني سوى جيجي التي ظهرت من العدم، قروية حمقاء تعتقد أنّها ملكة متوّجة ببعض دروس المكياج، وضربات الفرشاة التي تلطّخ بها وجه العرائس..

تمتلك المكان شيئًا فشيء، تحلّ محلي وتتولّى مسؤولياتي، يعتمد عليها الباشا، تجلس على مكتبه في أثناء غيابه، أراها وهي تتدلّل عليه، لا أعرف كيف أغوته دون أن تملك لا مالًا ولا جمالًا، يتحوّل إلى طفل صغير أمامها، وكأنّها ساحرة قادرة، أمّا أنا فأتصيّد لها الأخطاء، أعبّر عن اشمئزازي منها أمام الحاج الذي أعلم جيدًا أنّه يعرف كل شيء، ألقي بسؤال عابر عليه في زيارة من زياراته التي أصبحت قليلة، لماذا لا تزوّجه؟

ينظر إلي مطولًا، فأتظاهر بتقليم أظافري، أنسحب بدعوى العمل وأعرف أنّه بدأ جديًا في التفكير.



توضيب العروس كان يومًا مثاليًا، أرى جيجي من خلف النافذة تكاد يغشى عليها، تقف بصعوبة في انتظار خروج العروس من الحمّام المغربي وارتداء فستانها لتزينها بيديها، كان اقتراحي أيضًا أن يتمّ توضيب العروس هنا، نزعت شعر جسدها شعرة شعرة، وكأنّني أعدّها لنفسي، كانت جميلة ورقيقة وبنت ناس، فهل ستفكّ سحر جيجي عن الباشا؟

شهران على العرس والعروسان في جولة خارج البلاد، جيجي تزداد نحولًا، تصبغ شعرها في الأسبوع مرتين، ترتدي ملابس ضيّقة جديدة كل يوم، المسكينة تحاول محاكاة زوجته بأيّ شكل، محاولاتها تثير ضحكي لكنّي أحاول التسامي عن ذلك.

أحبّوا أعداءكم، لكنّها ليست عدوًا، إنّها حشرة حقيرة أتمنّى دهسها، أفكّر لماذا أكرهها إلى هذا الحدّ؟ لكنّي لا أجد ردًّا واضحًا..

لكنّ نادية كانت تملك الردّ، تغيظني بأفكارها السخيفة، تقول إنني أكره جيجي؛ لأنني أحبها، أنظر إليها بغل وأطالبها بأن تخرس، الفتاة الحمقاء التي أتى بها الباشا يوم عودته من شهر العسل تحاول التفلسف، لازلت أذكر يوم أن دخل بها عليّ ليطلب مني مساعدتها على التعرف على المكان.

- علّميها شيئًا، ربما تصبح مساعدتك.



أنظر إليها بدهشة، نحيلة، سمراء، بعينين سوداوين، شعرها أسود يغطّي الجبين، ألاحظ أنّها تعرج قليللًا، يرق قلبي لأيّ نقص في سيدة أمامي، أشعر أنّها بشكل أو بآخر مختلفة، إنّها بائسة بما فيه الكفاية لتواجه العالم كأنثى، فما بالك لو كانت ذات علّة.

تعتاد الفتاة على المكان بسرعة، تجلس بجواري للتحدّث، تفتح قلبها لي، كتومة لكنّها تلقي بالمعلومة شيئًا فشيئًا، تسألني فجأة، أنتِ مسيحية؟

ألتفت نحوها بعنف، من أخبرك؟ أسألها بحدّة.

- لا أحد، أنا أعرف..

أعقد حاجبي وأجزّ على أسناني، أقترب منها وصوتي الخشن يبدو أكثر إرعابًا: إياكِ أن تخبري أحدًا.

تهزّ رأسها بخوف وتجري خارج الغرفة، لكنّها تعود في المساء لتجلس بجواري وتربت على كتفي.

الحمقاء تصعب عليّ، أبتسم لها وأكمل السيجارة، أخبرها بما قاله لي الحج ذات يوم بعيد، فتهز رأسها في فهم.

- هذه حقيقة، في الصعيد لا تكشف النساء رأسهن في حضور مسيحية.



- أنت صعيدية؟

تهزّ رأسها بلا توضيح إن كان نعم أم لا، أريد أن أسألها ما الذي أتى بك إلى هنا لكنّي أتجاهلها قليللًا، لا شيء يمكن أن يثير دهشتي بعد كل هذا العمر.

تنتظر منّي أن أنطق لكنّي أكتفي بالتدخين في صمت..

- أنا هاربة.

أرفع لها عينيَّ بهدوء لتكمل:

- هربت من أهلي..

تقولها وتنظر إليَّ في عيني بقوة وثبات، نظرتها تبدو وكأنّها تكشف عن روحي، وكأنّها تقرأني، وكأنّها تراني أخرج من باب بيتي في الإسكندرية ذات يوم لم أعد أذكره.

هل كانت هي أنا أم كنت أنا هي وقتها...؟

كم مضى من الوقت عليّ منذ أن تركت منزل أهلي، كم مضى عليّ منذ أن تركت الإسكندرية؟ أحلم بزيارتها ولو مرة، أحلم برؤية أهلي مرّة واحدة، بعد كل هذه السنين.

علمت أن أمي ماتت بعد مغادرتي بشهور، كنت أشتاق لرؤية سارة بشكل حاد



دفعني للسفر فجأة والعودة إلى الإسكندرية بعد شهور من عملي في كوافير الباشا، أدخل الفندق بخطوات مسرعة؛ بحثًا عنها خلف البيانو لكني لا أرى أحدًا.

أسأل الجميع عن سارة، لكنها تبدو وكأنها اختفت، وكأنها لم توجد من البداية، يخبرونني أنها توقفت عن المجيء بعد غيابي، وأنهم لم يروها ثانية ولا يعلمون لها سكنًا.

لكني أعرف من أحد العاملين الذي يسكن بمقربة من بيتي القديم عن موت أمي وهجرة أبي.

لا تقوى قدماي على حملي، لكنني لا أبكي، توقفت عن البكاء من وقتها، كنت جافة تمامًا من الداخل، أشعر بجسمي فارغًا، وكأن أعضاءه ذبلت، جفت ثم تهشمت.

أعوض هذا الفراغ بالأكل، لا أتوقف عن الأكل والتدخين إلا للعمل، ثم أعود إليهما من جديد.

أتحول من الفتاة النحيفة الفزعة، إلى السيدة البدينة غير المكترثة بشيء، التي تجلس في غرفتها تتأمل ما يحدث بالخارج وتدخن.



تأتيني نادية يومًا وهي تمسك هاتفها، تريني صورة عارضة أمريكية حسناء وتشير إلى وجهها.

- تشبهك تمامًا يا منى، لو كنت أنحف..

كانت الفتاة نسخة مني منذ عشرين عامًا، أقرأ اسمها بالإنجليزية

- تملك اسم عائلتي نفسه..

كنت أرتاب في شيء، أطلب من نادية أن تحمل لي تطبيق إنستجرام على هاتفي، تنشأ لي حسابًا وتأتيني بصفحة العارضة من جديد.

أتجول بين صورها حتى أراه..

أبي، كان هو بنفسه، لم يتغيّر وكأن يومًا لم يمر، ربما بدا أكثر امتلاءً لأصبح نسخته أكثر، يحتضن ابنته وصبي آخر يبدو أنه شقيقها، بجوارهما سيدة شقراء لا بد أنها أمهما، أقرأ المكتوب تحت الصورة، كانت تهنئه بعيد ميلاده، وتصفه بأنه أفضل أب في العالم.

أفضل أب في العالم..

يقف بجوار ولديه في الصورة ناسيًا أخرى قد مر عليها السنين، أبدو وكأنني أنا أمه وليس العكس فأغلق الهاتف بغل..



أقرّر الذهاب إلى الإسكندرية يوم عطلتي، تقترح نادية أن ترافقني، أوافق لأنّني لا أعرف طريق أيّ شيء الآن، لم أخرج خارج نطاق الشارع والشوارع المحيطة إلا مرّات تُعدّ على أصابع اليدين، أمشي بصعوبة وألهث طيلة الوقت، سيدة سمينة وفتاة عرجاء تسيران جنبًا إلى جنب في ثنائي يثير الشفقة، لكنّها تفعل كل شيء بنفسها، تحجز لنا تذاكر القطار، وتناولني زجاجة المياه، وتساعدني في النزول والصعود، وتملي على سائق التاكسي عنوان الفندق.

كان كل شيء مختلفًا، العمارات القبيحة تحيط بالكورنيش، الذي لم يعد كورنيشًا، أتساءل أين البحر؟ لا أراه من المتاريس المحيطة به، أسوار عالية، وكازينوهات تغلق الرؤية. يضحك السائق عليّ ويقول أغلقوا علينا الرؤية، لا بديل عن الدفع لرؤية البحر..

أشعر بالصدمة، أكاد أشم رائحته، ألمحه بين الحين والآخر عبر فرجات ضيقة، العمارات مائلة على بعضها بعضًا، والشوارع مزدحمة رغم أنّنا لازلنا بعيدين عن موسم الصيف.

أمليه عنوان الفندق، المكان الوحيد الذي أعرفه، لا يوجد فرصة لمقابلة سارة ولا حتى شخص ممن أعرفهم، لكني كنت أشعر بالحاجة للذهاب ورؤية المكان.



وصلنا إلى الفندق، الذي بات عتيقًا متهالكًا، أجر قدميَّ إليه، اللوبي لم يعد كما كان، لم يعد هناك بيانو ولا لوحات ولا شيء، الكاونتر المزخرف بات خشبًا متآكلًا يقف خلفه شاب أسمر بشعر مشعث، ينتظر مني أن أنطق، لم يعد هناك سياح ولا نزلاء، بعض الشباب المزعجين يخرجون ويدخلون بصخب، ينقطون ماءً ورمالًا على السجادة البالية.

أشعر بالفزع وأتمسك بنادية، أشدها لنخرج مسرعين.

أطلب منها أن نجلس في أيّ مكان لنتناول شيئًا، تختار مقهى مقابل يطلّ على البحر من نوافذه العريضة، الشباب والفتيات يجلسون لتدخين الشيشة ذكية الرائحة، أطلب واحدة لي مع الشاي، وتطلب نادية عصير فواكه.

أدخن في صمت وأنا أتأمّل البحر الذي لم أعد أعرفه، أتذكر سارة والبيانو والورود الحمراء، أتذكر زمنًا آخر كان كل شيء مختلفًا.

لو كانت لا تزال هنا، لكان الوضع اختلف كثيرًا اليوم، كنا لنبقى معًا رغم أنف الجميع، كنت سأحافظ على شكلي، وصحتي وحياتي، لم أكن سأخاف شيئًا، لم أكن لأهرب وأتركها، أنا جبانة، تخليت عنها وعن نفسي وعن الإسكندرية.

أتناول هاتفي وأدخل على حساب أبي على إنستجرام، أبي العزيز الذي صار رجلَ أعمالٍ ثريًا وشهيرًا في أميركا، أجري على اسمه بعض البحث بمساعدة



نادية، أعلم أنه تزوّج عارضة أزياء روسية منذ عشرين عامًا، وأنا، منى المسكينة الوحيدة التي تزن 90 كيلو غرامًا، تملك أخًا وأختًا، عارضة أزياء ذهبية، تظهر على أغلفة المجلات العالمية، وتسير على منّصات أسابيع الموضة، وتتفاخر بأصولها العربية.

أبي الذي اتّهمني بأنّني ممسوسة، يتفاخر بشهرة ابنته التي ظهرت عارية على غلاف مجلتين من قبل، يصحبها إلى المهرجانات العالمية، يرتدي أفخم البذلات، لقد نسي عالمه الآخر في الإسكندرية، نسي ابنته التي قيّدها بحبل غليظ في السرير عندما رآها مع امرأة، نسي أنّه أراد إرسالها إلى الدير، نساها بمجرد أن خطا بقدميه إلى أرضٍ جديدة.

المال والشهرة غيّرا أفكاره، فهل يتذكرني؟

أفتح يوتيوب لأراه يتحدّث مع مذيعة مثلية شهيرة ومحبوبة بكل لطف، يحتضنها في بداية اللقاء ونهايته، يحكي عن رحلة كفاحه وفخره بابنته، وعن أصوله العربية التي لا تعني كونه غير منفتح، إنّه يدافع عن حقوق جميع البشر.

تعرض المذيعة صوره في مظاهرات للدفاع عن حقوق المثليين والملوّنين وجميع الديانات، ماذا لو تواصلت مع الصحافة الأميركية وقصصت عليهم قصّتي معك؟ ربما يعرضوا عليّ مليون دولار أو أكثر.



سبق صحفي: ابنة الملياردير المصري أبو عارضة الأزياء الذهبية تعود لتكشف أسراره..

أغلق هاتفي وأدخّن بغلّ، تنظر إليَّ نادية نظرتها المليئة بالشفقة، فأسألها بحدّة عمّا تنظر؟ تقول: «شايك برد».

أشربه بسرعة وأطلب منها أن نعود أدراجنا، تعرض عليّ المبيت معي هذه الليلة لكنّي أرفض تمامًا، أتهالك جالسة على السُّلّم أمام باب الشقة المغلق، أعطيها المفاتيح لتفتح لي الباب حتى أتمالك أنفاسي، تفتحه وتضيء الأنوار، وتعود لي لتسندني حتى غرفتي، تساعدني في تغيير ملابسي والرقاد على السرير.

أنظر إلى السقف المشقّق، أمامي صورة العذرا تنظر إليّ بوداعة كما تفعل دومًا، تجلس نادية بجواري مستكينة.

- أعد لك بعض الطعام؟
- ما جدوى الحياة يا نادية؟
- ليس لها جدوى سوى أن نعيشها.
- أنا وحيدة تمامًا، لا عائلة لي ولا ولد، ولن يكون، أتمنّى أن أختفي، أذوب، أتلاشى، هل يمكن أن يتلاشى المرء إلا بالموت؟



تقترب مني نادية، أرتجف رغماً عني، تثبّت نظراتها عليّ، كانت نظراتها حنونة، عاطفية، ذكّرتني بنظرات سارة، تمسح على شعري، تحيط بذراعيها خصري، تقرّب وجهها من وجهي، تبدو وكأنّها تهمّ باحتضاني، أنتفض..

- ماذا تفعلين؟

لا ترد، تحتضني بقوة، أحاول دفعها عني لكنّها تتمسّك بي أكثر، لا أقاوم، أشعر برغبة في البكاء، أبكي فعلًا، تربت على ظهري بهدوء، أشعر بالخفّة، أتحرّر قليلًا، تختفي الغصّة في حلقي، أشعر ببعض الراحة، أتعجّب ممّا كنت أفكّر فيه منذ دقائق.

كيف جاءت هذه الفكرة إلى رأسي ولِمَ؟

تربت نادية على ظهري أكثر فأشعر بالتحسّن، تنهض وتبتسم في وجهي، لكنّها تبدو وكأنّها أكبر عمرًا، عيناها حزينتان وكأنّها شهدت خبرة مروّعة.

تخرج من الحجرة بعرجتها الخفيفة، أسمع صوت باب الشقة ينغلق خلفها، تختفي نادية من أمام عيني، لكنّي لم أكن أعرف أنّها ستختفي قريبًا إلى الأبد.





جيجي

عندما يزداد عدد كارهيك اعلم أنّك ازددت قوّة..

أقف أمام البانيو الممتلئ بالماء والدماء ولا أرمش، ترسم منى الصليب على صدرها فأنظر إليها بدهشة، لم أعلم أنّها مسيحية سوى يوم ماتت نادية..

تهرع إلى خارج الغرفة، بالتأكيد تجري لتهاتف الباشا أو الشرطة لا أعرف، أبلع ريقي بصعوبة، ما الذي فعلته الحمقاء؟ ولماذا؟ تأتي إلى عقلي عشرات السيناريوهات، لا شيء يربطها سوى الباشا، الباشا الذي خرجت منى لمهاتفته، أنتبه إلى أنّني واقفة في غرفةٍ نصف مظلمة مع جثة فلا أشعر بالخوف، على العكس، أشعر ببعض الراحة، وكأنّ حملًا قد انزاح عن كاهلي، تتوقف كراهيتي للفتاة بعد موتها، تبدو الآن طيّبة جدًا وظريفة، حتى إنّني يمكن أن



أودّعها، أقترب أكثر من جسد الفتاة الهزيل النائم فارغ الدم، شعرها الأسود الفاحم مبعثر على جبينها، ألملمه للخلف برفق، ينخلع في يدي فأتجمد، أمسك الباروكة التي خرجت في يدي، الفتاة كانت ترتدي باروكة طيلة الوقت!

كيف خدعتني وأنا لا أخطئ التعرّف على الشعر المستعار أبدًا، أركبّه وأهذبه وأصنعه أحيانًا.

الصدمة تجعل عينيَّ تجحظان أكثر، أنظر إلى رأسها فأجد شعرًا قصيرًا بخصل غير متساوية، أشقر كالح، خشن للغاية، أكاد ألمسه لأسمع صرخة منى التي عادت تدوّي في المكان، فتتردّد وكأنّها عويل عفريت، تطلب مني ألاّ ألمس شيئًا.

أنظر إليها وأرفع حاجبيّ، أحاول تثبيت الباروكة على رأس الفتاة على عجل، وأغادر الغرفة، لأتركها مع عزيزتها قليلًا، ربما تصاب بسكتة قلبية وأنتهي منها هي الأخرى.

أدخل إلى مكتب الباشا المقابل وأجلس على مقعده، أشعل سيجارة فألاحظ أن أصابعي ترتعش بقوة، لست ثابتة الجنان إلى هذا الحد، مشاهدة جثة فارغة الدماء ليست شيئًا لطيفًا ولا معتادًا بالتأكيد.

ألتقط هاتفي وأضغط على اسم الباشا، يردّ بعصبية، وأسمع صوت الهواء



يصفّر من جانبيه، يقود سيارته كما هو واضح بسرعة البرق، يسبّ ويلعن، ويقول: يوم أسود من بدايته.

أطالبه بالهدوء، حالة انتحار واضحة ولا شيء يعنينا، فلتأتِ الشرطة وتفحص المكان وننتهي بسرعة.

- انتحار أو قتل، في الحالتين فضيحة للسنتر.

أفكّر في كلماته قليلًا، في مدينة صغيرة مثل هذه الشائعات تكبر وتتحوّل إلى فضائح ضخمة تبلع أيّ شخص، أطمئنه ببعض الكلمات وأغلق الهاتف قبل أن يصدم شخصًا في قيادته المجنونة..

أعود بظهري للخلف وأفكّر، لم أحب هذه الفتاة قط، ومن البداية أسأل الباشا عنها فيتمتم ببعض الكلمات الخائبة، يتصبّب عرقًا ويشيح بعينيه، أسأله: ما الذي تفعله وهي لا تملك خبرة ولا موهبة؟ تسير في المكان بلا عمل، تنام فيه وتأكل وتشرب وتتقاضى راتبًا، أنظر إليه بشك فيقبّلني في جبيني ويقول: فعل خير، غلبانة ويتيمة وليس لها أحد..

تعرج نادية بقدمها اليمنى، ربما شلل أطفال قديم أو حادث لا أهتم، لكنّ هذا لا يمنع أنّها جميلة، خمرية دقيقة الملامح، يتساقط شعرها الأسود الناعم على جبينها الضيّق وعينيها المكحّلتين بلا كحل، فتبدو كلوحة فنّية، ترتدي ملابس

ضيقة بشكل مستفز، بلوزة بيضاء على توب أسود طويل الكمين وجيب ضيق، ملابسها تبدو في حالة جيّدة طيلة الوقت، لا أعرف من أين تأتي بها، لكن كل هذا لا يمنع أنّ قوامها مثالي.

أنظر إلى الباشا من جديد وأسأله صراحة إن كانت تعجبه؟ يحمرّ وجهه غضبًا ولا يردّ عليّ، يتركني أحترق ويذهب في كل مرّة.

أسمع صوت الصخب من الخارج فأعلم أنّ الشرطة وصلت ومعها باقي العاملين في الكوافير، أخرج بسرعة فأرى العالم قد تحوّل، عشرات الأشخاص يدخلون من الباب الزجاجي الضخم، الباشا يقف في المنتصف مع ضابطين، منى وبضعة فتيات يقفن على جنب يبكين أو يتظاهرن بالبكاء، والأولاد يبدون مصدومين بشكل واضح.

من قال إنّ وجود جُثّة في محل العمل أمر لطيف..

يناديني الباشا فأسرع بالنزول، يسألني الضابط عمّا حدث فأخبره بأنّني وصلت هذا الصباح لأجد منى تنتظر على الباب، فتحت المحل ودخلنا معًا، صعدت معها لتساعدني في شيء، لنجد الفتاة ملقاة غارقة في دمها..

يكمل متابعة الموقف دون أن ينظر إليَّ، أتبادل النظر أنا والباشا وأبدأ في التوتر،



يخبرني أنّني حتماً سأدلي بأقوالي في تحقيق رسمي، أنا ومنى وباقي العاملين قطعًا، فأهز رأسي صامتة..

يبتعد صاعدًا للدور الثاني، فأقف جوار الباشا، يتحسس قميصه بحثًا عن علبة سجائره فلا يجدها، أناوله واحدة وأشعلها له، يشكرني بتمتمة بلا معنى.

اليوم ينتهي بصعوبة بالغة، يغلقون المحل ويتركون الجميع يذهب مع أخذ الأسماء والعناوين والأرقام، سيستدعوننا جميعًا للتحقيق.

أعلم أنّ الموضوع سينتهي بتقرير الطبيب الشرعي، أنا متأكدة أنّ الفتاة انتحرت، لا يوجد أيّ شيء يدل على العنف، أنا أوّل من رآها، الفتاة قرّرت إنهاء حياتها لكنّها قرّرت ترك جثتها لنا للعقاب ربما..

تكره الباشا؟ ربما، تكره الجميع؟ إلا منى، فلماذا اختارت غرفتها بالذات؟ لا أعلم..

أغادر المكان وأتّجه إلى سيارتي الصغيرة المركونة على بعد شارعين، أجلس فيها صامتة، أتناول العباءة والنقاب الصغير من على المقعد الخلفي، أرتديهما على عجل قبل العودة إلى المنزل.

لا يمكن أبدًا أن يعرفني أحد خارج الكوافير، السبب بسيط جدًا؛ لأنّي أكون امرأة أخرى بالفعل خارجه.



نجلاء، الزّوجة اللطيفة والأمّ لطفلين مثاليين، أسير مع عائلتي في السوبر ماركت، أختفي خلف نقاب قصير على عباية سوداء، أرى زبونة أضع لها مكياج مناسباتها طيلة الوقت، نتحدّث معًا بالساعات، نتبادل الأخبار والحكايات والنمائم داخل الكوافير، تمرّ هنا من جانبي ولا تنظر إلي حتى.

تتلامس كتفانا فلا تهتم، النقاب قوّة، قوّة الاختفاء، قوّة عزل نفسك عن الآخرين وقتما تريد، قوّة إسكات زوجي أيضًا، الذي يرى عملي حرامًا بما فيه الكفاية، فأطمئنه به معه، وأفعل ما يحلو لي بالداخل.

أهبط من سيارتي في الصباح الباكر، لا أحد يراني وأنا أنزل النقاب من على رأسي، أفكّ أزرار العباية المفتوحة، تحتها أرتدي ملابس مختلفة، أحرص على شرائها بتوقيع ماركات عالمية، عبر الإنترنت أو من القاهرة التي أذهب إليها خصيصًا، وحدي أو مع الباشا..

وحده يعرف شخصيتيَّ، ووحده يمكن أن يناديني كيفما شاء، نجلاء، جيجي، أيّ شيء يريده، أنا موجودة دائمًا من أجله.

أدخل الكوافير فيلتفت إليّ الجميع، أرتدي الفساتين القصيرة الضيّقة، أسفلها الليجينج الضيق شبه الشفاف، والأحذية عالية الرقبة، شعري الطويل المصبوغ بأيّ لون أريده في أيّ وقت أريده، يتمايل على ظهري، لا ألتفت لأحد، أدخل



فورًا إلى مكتب الباشا، أجلس عليه لأدير المكان حتى يأتي، جيجي محل الباشا في أيّ وقت، وتملك سلطاته نفسها..

أشعل سيجارة وأطلب فنجانًا من القهوة، تأتيني به نادية.

أنظر إليها من أعلى لأسفل، تنظر إلي وتتظاهر بالاحترام، تقول: أيّ خدمة تانية؟ فأشيح بنظري عنها دون كلمة، ربما كانت تكرهني مثل الجميع، لكنّها لا تخافني، لا تخاف أحدًا؛ ولهذا أكرهها أكثر.

تعيد حمل الصينية الفارغة وتغادر متمهّلة، ألمح على طرف بلوزتها المرفوعة لأعلى بعد الانحناء اسمًا لعلامة أزياء معروفة، أعرف مقرّها الفخم في أحد أكبر المولات في القاهرة، من أين أتت نادية بمثلها؟

أناديها مجدّدًا فتستدير بلا كلمة، أسألها من أين أتت بهذه البلوزة، فتجيب بأنّها ملكها.

- اجلسي يا نادية نتحدّث قليلًا..

تجلس الفتاة أمامي بتردّد، تبتسم فتظهر أسنانها البارزة للأمام قليلًا، جميلة بالتأكيد، مغرية، ربما كنت على حق، الباشا لا يقاوم العاملات البائسات القادمات من البلاد الصغيرة البعيدة بالتأكيد.



تحرقني الفكرة وأشعر بعينيَّ تكادان تخرجان نارًا، أبتسم لها ابتسامة مرعبة، ألمح الفزع في عينيها فأعيد:

- من أين أتيت بها؟ لا أريد كذبًا.

- إنّها ملكي.

- ثمنها يساوي مرتبك لمدة عامين.

- لم أشترِها من مرتبي، أملك ملابس جميلة أيضًا يا مدام جيجي.

تنهض فجأة فأخبط على مكتبي بعنف:

- مجنونة أنت؟ من قال لك أن تنهضي.

تعيد الجلوس ووجنتاها محمرتان، أحاول تلطيف الجو، والتحدث بلهجة أخرى ربما تجيب، اسألها عن حاجتها للعمل مادامت تملك مثل هذه الملابس الثمينة، لكنها تلزم الصمت للحظات، ثم تتمتم:

- ظروف.

أطلب منها شرح الظروف، أغريها بالكثير، وبأنّها ستصبح من المقرّبين منّي، تعرف بالطبع ما الذي يعنيه هذا..

- أنا لا أتحدّث مع أحد من الأساس..



يخنقني ردها، فأشير لها بأن تنهض وأشعل سيجارة، أراقبها وهي تهرع إلى غرفة منى، تلتفت إليها وتختفي من أمام النافذة، يجلسان معًا طيلة الوقت.

تؤسس منى حلفًا عليّ إذن..

تنظر إلي من نافذتها الصغيرة من غرفتها التي أراها تتطلّع منها طيلة الوقت، تراقبني وتراقب الجميع وتحسب أنّ لا أحد يراها، أعرف أنّها تعرف كل شيء، لكنّي لا أهتم بها ولا بما تعرفه، أقترب من الجدار الزجاجي الذي يطلّ بأكمله على الجناح المقابل وعلى الطابق الأرضي، أبتسم بتوحّش فتلتقي أعيننا، لا تخافني ولكنّها تكرهني بالتأكيد، الشعور متبادل، ثعبان يعيش بجواري ولا أستطيع سحقه بكعب حذائي. مشكلتها أنّها محميّة من الحاج، سبقتنا جميعًا إلى هنا، سبقت الباشا نفسه، تعمل مع أبيه منذ كان محلًا صغيرًا بائسًا، وستظل حتى لو غادر الجميع.

يصل الباشا أخيرًا، أستقبله بابتسامة لا تظهر إلا من أجله.

يسألني عن الأحوال فأجيبه، أريه قائمة الحجوزات، العرائس اللاتي يردنه بالذات، يمسك بيدي من أسفل الدفتر فأتظاهر بالخجل..

- وحشتيني يا جيجي.

أفهم كلامه فورًا، وأعرف ما يريد من نظرة، أخبره بأنّني سأنتظره بعد ساعتين



في مكاننا المعتاد، شخصيتي الأخرى يلزمها بيت آخر بالتأكيد، أفعل فيه ما أريد، لكن مع الباشا فقط.

أنا لست خائنة، أنا عاشقة، هناك فرق كبير بين الأمرين.

بدأت العمل مع الباشا منذ كنت في السابعة عشرة، كان هو يكبرني ببضعة أعوام، لكنّه يملك كل الإمكانيات التي تجعله ينتقل بمحل والده الصغير إلى هذا المركز الضخم الذي نافس مراكز القاهرة والإسكندرية.

أحببته من أوّل نظرة، يقف كالبدر المنير بجوار والده، شعره البُنّي يتساقط على عينيه الزرقاوين فأشعر بالدوار.

يسألني أبوه عن محل إقامتي فأخبره باسم قريتي النائية التي لا يعرفها أحد، اسمها المضحك يجعل الباشا يبتسم ساخرًا فيحمرّ وجهي، أرفع عينيَّ إليه فيصمت، يتأملني بنظرات فاحصة، يركز نظره على كل جزء من جسمي، أشعر وكأنّه يخلع عنّي ملابسي بنظراته، فأتعمد إظهار مفاتني أكثر، أطيل رقبتي وأستند على ساق واحدة وأثني الأخرى ليرى منحنيات خصري وفخذيَّ، أتظاهر بإسقاط حقيبتي وأنحني لالتقاطها فتهبط فتحة البلوزة الواسعة التي لا يخفيها الحجاب الضيق المعقود على رقبتي بقوة.

أنهض وأنظر في وجهه فأعلم أنّني أعجبه، يعيد والده سؤالي عن متى يمكنني



البدء؟ فالفتاة التي تتولّى كيّ الشعر ستذهب قريبًا والموسم لا يتحمّل، فأخبره من اليوم لو أراد..

يخبرني أن أبدأ من الغد، وأن أرتدي سروالًا أسود، وأيّ شيء باللون الأحمر من فوق، الحجاب يجب أن يكون أحمر أيضًا أو أخلعه بالداخل، فأبتسم وأومئ برأسي في احترام..

أغادر المحل وأنا أكاد أرقص من الفرحة، العمل لم يكن الشيء الذي يسعدني، أعلم أنّ أيّ كوافير في المدينة يتمنّاني منذ أن تركت المحل السابق، لكنّه الباشا الصغير الذي يجعلني سعيدة بهذا الشكل..

أعمل إلى جواره كل يوم، يعلّمني تسريحات جديدة حديثة، يلتصق بي من الخلف وهو يمسك يدي ويعلّمني كيفية استخدام الموس الحاد في جزّ أطراف الشعر بميل، يعلمني كيفية تنظيف الأدوات، ووضعها في حقيبة خاصة بكل عامل، يضع أمامي كمية ضخمة من المجلات الأجنبية لتوضيح طرق تطبيق الصبغة والمكياج والماسكات بأحدث التقنيات.

لقد كان نهمًا للتجديد، يملك طموحات لا تكفي لهذه المدينة الصغيرة، ولا لذلك المحل الصغير، الذي بات مزدحمًا بالعرائس والفتيات بسببه هو فقط الآن.



يقف إلى جواري في الممر الجانبي بخارج المحل ويقول: لا بد من البحث عن مكان أوسع، الممر تجلس فيه العرائس على كراسي خشبية غير مريحة، يتأفّف من عدم وجود حمّام واسع، ولا يوجد مكان مريح مكيّف للجلوس، فأوافقه برأسي دون كلام.

يقترب منّي ويلتصق بي، مرفقه يلامس صدري تمامًا، يتعمّد تحريكه فوقه لأعلى وأسفل فأتظاهر بالخجل، أبتعد خطوتين فينظر إلي ويبتسم بسخرية، يعود إلى الداخل وأحاول أنا إيقاف قلبي من الدق بهذا الصوت المرتفع.

هو أيضًا يحبّني، لكن ليس لدرجة الزواج، أنا في النهاية مجرد عاملة، كوافيرة قادمة من قرية لا تظهر على الخريطة، لعوب كما يقول عنّي أبوه، يكرهني أيضًا، الجميع يكرهون جيجي كما أطلقت على نفسي داخل الكوافير ما عدا الباشا، هو فقط من يتحدّث معي طيلة اليوم، يعلّمني باستمرار، وأنا سريعة التعلّم، يراقبه أبوه وهو غير راضٍ لكنّه يصمت، فأنا في النهاية ملك يمينه، يعتقد أنّني ملكية خاصة، فلا مانع من أن يلهو بها ابنه قليلًا..

أتعمّد الإبطاء في عملي، أكوي الشعر ببطء شديد لدرجة تثير غضب الزبونة، حتى يملّ والده ويذهب، يذهب الجميع ونبقى أنا وهو، وقتها أتحوّل لأسرع كوافيرة في العالم، أنهي الخصلات المتبقّية في دقيقتين، وأدفعها دفعًا للذهاب.



يغلق علينا باب المحل الصغير المنزوي، ننفصل عن العالم الخارجي، أنسى كل شيء إلا هو، يقبّلني دائمًا في جبهتي أولًا، ويعيد ذلك وهو يمسك بكفّيَّ فأذوب، يهبط إلى أنفي، شفتيَّ، عنقي، أضمّه بقوة.

ركبتاي ترتعشان فيدفعني إلى الحائط، النيران تشتعل في أذنيَّ.

أنتفض وهو يعتصر صدري، يفعل كل ما يريد إلا شيئًا واحدًا؛ ليس حفاظًا عليّ بقدر ما هو حفاظ على نفسه.

ينتهي منّي فيفلتني من بين يديه، أتكوّم أنا على الأرض لدقائق، ألهث فيخبرني بأن أسرع في تعديل ملابسي.

يعيد فتح الباب ورفع الجرار، ويتركه دقيقتين قبل أن يسمح لي بالذهاب.

أسير وحدي في الشارع المظلم، أخاف أن تظهر على شفتيَّ آثار تقبيله، فأخرج الحمرة من الحقيبة وأنا في الميكروباص المتهالك المتوجّه إلى قريتي.

أضع طبقتين حتى لا يظهر الازرقاق أسفلهما، أعدّل الحجاب وأضيقه على مقدمة ذقني.

أصل أخيرًا إلى البيت، أسلّم أمي كل ما حصلت عليه من بقشيش إلا قليلًا.

الطريقة الوحيدة حتى لا تمنعني من العمل، وحتى لا تمنعني من الباشا.



المركز الكبير قارب على الانتهاء، يأخذني الباشا لأشاهده أوّل مرّة، تصدمني المساحة الضخمة، وديكوراته الأقرب للبيوت القديمة «سلملك» أرضي تتوسّطه نافورة نحاسية، و«حرملك» محاط بشبابيك من الأرابيسك والقناديل الملّونة الزجاجية، كما أشاهدها في المسلسلات التاريخية.

يخبرني أنّه قرّر إلحاقي بدورة تدرييبة على فنّ المكياج في القاهرة، سأسافر معه لمدة ثلاثة أيام، وعليّ أن أستعد لذلك.

يضع مبلغًا من المال في يدي كافيًا لإسكات أميّ عن فكرة السفر، لا أصدق نفسي من السعادة، ثلاثة أيام مع الباشا، وحدنا، دون اختباء، أو اضطرار للخروج وحدي دونه، دون اضطرار لممارسة الحبّ وقوفًا، أطير في أحلامي وأستعدّ كالعروس من أجل هذه الأيام الثلاثة.

أنفقت كل ما أملك على شراء الملابس الداخلية: قمصان نوم زاهية أتذكّرها الآن وأضحك، قروية ساذجة تحلم برحلة خيالية مع الأمير.

أرتّب حقيبتي باهتمام، أغادر المنزل وأنا أطير من السعادة، الرحلة الشاقة في الأتوبيس الضيّق حتى الموقف أصبحت أجمل لحظات حياتي، أتلهّف للوصول والانطلاق في الرحلة المنتظرة..

أقترب من الكوافير لأجد أتوبيسًا صغيرًا ينتظر، وكل العاملين يصعدونه



ببطء وكسل، تتّضح الرؤية في عقلي، وأفهم أنّها ليست إجازتي الخيالية مع أمير أحلامي؛ إنّها مجرد رحلة عمل مع باقي عمّال الكوافير، وأشخاص لا أعرفهم، كلهم في طريقهم للتدريب من أجل المركز الكبير.

لقد كنت واحدة ضمن 10 فتيات وفتيان، حتى مُنى لم يتركها، تجلس بجواري دون أن تدير وجهها لي، تنظر إلى مظهري وحقيبتي الضخمة وتبتسم بسخرية..

- هل كنت تعتقدين أنّها رحلة استجمام؟

أشيح بوجهي عنها، تقبع طيلة الوقت في الطابق الثاني الصغير من المحل الخاص بتجهيز العرائس، إنّها موجودة منذ الأبد، الباشا يعاملها باحترام وكأنّها أمّه، والحج لا يطيق الاستغناء عنها؛ ربما ترافقه، أفكّر في سرّي، ثم أستبعد الفكرة، هي غير مغرية بمرافقة حتى الجثث الهامدة..

ثلاثة أيام لم أرَ فيها طيف الباشا، دروس مملّة ومشاهدة طرق تطبيق المكياج على الشاشات الكبيرة، لكنّي كنت متميّزة فطريًا في التنفيذ العملي، كنت الوحيدة التي تجيد رسم العينين ومزج الألوان، أملك خبرة طبيعية وذوقًا راقيًا لا يناسب بيئتي، لكنّه يناسب شخصيتي، أعرف أنّني سأكون خبيرة التجميل الوحيدة، ويروقني هذا اللقب.



بعد العودة، يستدعيني الحج إلى المركز، أدخل إليه لأجده جاهزًا بالإضاءة والمرايا وكل المعدّات، أتحرّك كالمسحورة إلى الطابق العلوي، إلى المكتب الكبير ذي الجدران الزجاجية، وراءه يجلس الحج، وبجواره يجلس الباشا مسترخيًا، يتحرّك بمقعده الدوّار يمينًا ويسارًا دون أن ينظر إلي.

يقول أبوه إنّني سأكون خبيرة التجميل الجديدة في المركز، لموهبتي الطبيعية في ذلك.

يصرّ على أن أستمر في التعلّم ومتابعة الطرق الجديدة، ويتعهّد بإحضار المجلات الأجنبية والمستحضرات الأصلية إلى المركز، تمامًا كما لقّنه ابنه منذ قليل.

أهزّ برأسي موافقة وأتظاهر بالسعادة، أنظر بطرف عيني إليه فلا ينظر إلي.

أغادر المكان وأعود إلى المحل، أكمل عملي بنصف عقل وبلا قلب.

أمّا زبونتي الأولى، فكانت العروس المختارة..

عروس الباشا تجلس تحت يدي بملامحها الأرستقراطية، فتاة نحيفة بلا شيء مميّز سوى ملابسها الغالية، وآثار العز التي تظهر على هؤلاء المدللات اللاتي أعرفهن جيدًا، خريجات المدارس الأجنبية، اللاتي ينطقن القاف كافًا، أحفظهن وأكرههن طوال عمري، أتعامل معهن في الكوافير كل يوم، وأحب تجاهلهن ومعاملتهن بسخف؛ انتقامًا.



أعلم أنّها ابنة واحدة من أغنى عائلات القاهرة، درست في جامعة الباشا نفسها ذات الاسم الاجنبي الفخم، لا أهتم بالتفاصيل، أتخيّل أنّني أجزّ رقبتها بدلًا من وضع كريم الأساس عليها، أرسم عينيها بدقّة، لكني أتمنّى لو نزعتهما من محجريهما، إنها زبونتي الأولى، امتحاني الأول، وأنا لا أنوي الرسوب..

أضع لها الرموش المستعارة، أنتهي من ظلال الجفون، وأحمر الخدود، وأقوم بحيلة صغيرة تعلّمتها لتكبير الشفتين قبل وضع الحمرة، فتنظر لنفسها غير مصدّقة، تقول: «لم أتوقّع أن تفعلي هذا»، كانت تريد التزّين في القاهرة لدى أكبر الكوافيرات، لكن الباشا رفض وصمّم على رأيه..

تمدّ يدها إلى حقيبتها الملقاة بجوار حذائها الرياضي الذي استبدلته بحذاء يساوي راتبي لمدة عامين، وتخرج منها مائة جنيه، تضعها في يدي وتبتسم، تقول: ميرسي، فأهزّ برأسي دون صوت.

حلقي محتقن، ويداي متخشبتان على الورقة الكبيرة، الورقة التي صارت البقشيش الرسمي لي، أيّة عروس تعلم أنّها إن لن تضعها في يدي قبل المكياج، فستندم كثيرًا بعد ذلك عند رؤية صور زفافها، لا أحد يستطيع الجدال، مائة جنيه لي، وخمسون لمساعدتي أقتسمها معها بعد ذلك.

لقد تعلّمت الكثير من دروس المكياج التي ألحقني بها الباشا، تعلّمت أن أضع



طبقات من الألوان على وجهي حتى تيبس، لم أعد قابلة للابتسام، أو البكاء، لم أعد نجلاء التي أتت من القرية المتطرفة، أنا الآن جيجي، التي تملك شقّة صغيرة في الشارع المجاور للمركز، لا تنطق أمّي مادام أمنحها النقود التي تريدها، جيجي التي تتحوّل كل يوم بشكل ملحوظ.

تعلّمت شراء الملابس التي ترتديها المدام، تصفيف شعري كما تصفّفه، تعلّمت كيف آخذ ما أريد وقتما أريد..

يقترب منّي الباشا ليلة زفافه، نظرة ذنب صغيرة تلوح في عينيه، فأتصنّع ابتسامة، أقول مبروك بثقة، فينظر إلي بدهشة، هذه اللحظة حاسمة لي، عليه أن يعلم أنّني لا أهتمّ، هذا فقط ما سيجعله يعود ويبقى، وهذا بالضبط ما حدث.

يترك الباشا عروسه الجديدة ليتسلّل إلى شقتي ليلًا، تبدو هي كطيف وهمي غير حقيقي، بعيدة عنّي تمامًا، أنسى ملامحها التي حدّدتها بيدي يومًا، تذوب وتتلاشى ولا أهتم، لكن لا شيء يظلّ سرًا في الكوافير.

بالتأكيد هي من تكلّمت أولًا، الحديث يخرج من غرفة مُنى المظلمة ككهف اعتراف ليسري في جميع الأماكن.



ينظر إلي العاملون نظرات سخرية، تتهامس الفتيات في غرفتهن الصغيرة الجانبية، أقتحم المكان عليهن فيصمتن ويغيّرن الموضوع.

حتى المدام أصبحت تأتي كل يوم، تجلس مع الباشا في مكتبه لأحترق أنا بالخارج.

أجلس على مقعدي العالي أمام العروس، أضع لها المكياج بغلٍ حتى أكاد أثقب وجهها، تصرخ فأعتذر وأحاول التركيز، أنتهي فلا أطيق البقاء، أغادر المكان وأهرع إلى شقتي.

أجلس لآكل أظافري في انتظاره، أعرف جيّدًا أنّه سيأتي، لن يتركني هكذا ويذهب، يأتي فعلًا، يجلس بجواري ويحتضني بقوّة، أريد أن أبكي لكنّي أمنع نفسي بكل طاقتي، يهمس في أذني، أعتقد أن عليك البحث عن زوج في أقرب وقت، هذه هي الطريقة المثالية لإيقاف الكلام، ولإبعاد الأنظار، وللعودة كما كُنّا، مع زيادة عائق واحد..

زوج..

أنا لا أخون زوجي مع الباشا، أنا أخون الباشا مع زوجي، وهو يخونني مع زوجته، إنّه من حقيّ وأنا من حقه، لكنّ العالم لا يسمح لنا بذلك.



أختار رجلًا من قريتي، مثاليًا كما أريد، فقيرًا، ضعيف، لا يعمل، وأعرض عليه الزواج فيوافق، وهو يعتقد أنّني أحضّر له فخًّا.

كيف تتزّوج جميلة القرية التي أصبحت «هانم» تقود السيارة منه؟ أخبره أنّني أريد الستر، وأنّ عملي يقودني للجنون، أزيّن العرائس ولا أتزيّن لأحد، يتظاهر بالاقتناع بكلامي، نتزوج بصمت دون أن أتزيّن له ولا لغيره، اختار شقة بعيدة تمامًا عن الكوافير، شقة إيجار عادية، أفرشها أنا بكل شيء، يغدق علي الباشا بالأموال لأكمل تجهيزاتي، يرتاح ضميره بهذا الشكل، وأنا أحبّ أن أريح ضميره طبعًا.

أريح ضميره بعذاب العيش مع رجل لا أطيق رائحته، يقبل عليّ فأكتم أنفاسي، أغمض عيني وأكتم صرخاتي، يعتقد هو أنّني أجزّ على أسناني استمتاعًا فيكمل ما يفعله بفخر، هذا القذر لم يمنحني سوى شيء واحد فقط، حرّيتي، وحرّية أن أشرّع جسدي كاملًا للباشا، لم يعد حبّ المراهقين يكفينا، كان هذا الشخص ضريبة حتمية دفعتها لأكون له كاملة بلا نقص، مجرد بوابة عبور إلى حيث أنتمي فعلًا، حضن الباشا فقط ولا شيء غيره..

لكنّ الحياة لا تسير هكذا ببساطة..

يحاصرني زوجي بالاتهامات، ينظر إلي ويخرج الشرر من عينيه، لا يزال عاطلًا



لا يملك قوته، أمنحه المال عن طيب خاطر مقابل أن يصمت قليلًا، يطالب بالمزيد، يريد افتتاح مشروع خاص به، محل اتصالات وبيع كروت الشحن المنتشرة في هذه الأيام انتشار النار في الهشيم، أخبره بأنّني سأفكّر في الأمر، أبيع جزءًا من الذهب الذي أشتريته من عرقي.

يمنحني الباشا ما ينقص مقابل أن يتخلّص من صداع تلميحاتي بأنّ زوجي سيفضحنا، وبأنّه يعلم، وبأنّ فكرته كانت أسوأ ما حدث لي.

يفتتح مشروعه الخاص الذي أصرّ على كتابته باسمي، وللغرابة ينجح، المحل يصبح اثنين فثلاثة، أشاركه في كل شيء فلا يقدر على الاعتراض، يزيد من أقسام صيانة الهواتف المحمولة التي كانت تزداد انتشارًا، يطلق زوجي لحيته ويطالبني بالالتزام، يتحوّل لشخص آخر، هادئ متّزن ذي أتباع.

الضعيف لم يعد ضعيفًا، يشتري المزيد من المحلات دون شراكتي، يعقد هو صفقات جديدة مع تجار المدينة، يصبح اسمًا معروفًا، يطالبني بالبقاء في المنزل، يتأفّف من مهنتي ويخبرني أنّها حرام، لا يمكن أن يُعْلِم أتباعه ومريديه بأنّ زوجته «كوافيرة»، أوافق على ارتداء النقاب مقابل تركي في عملي، يقبل مضّطرًا، ربما ازدادت قوته لكنّي شريكته الأساسية التي لا يمكن الخلاص منها، الحمد لله لم يعد يقرّبني، ينظر إلي مشمئزًا كلما عدت مساء، لكنّه يحافظ



على صورته أمام الجميع كزوج سيد، أعلم أنّه يفعل ما يريد مع من يريد، ربما تزوّج واحدة أو اثنتين، لا يعنيني الأمر في شيء، لا يعنيني تمامًا.

أستمرّ في حياتي التي اخترتها، عشيقة الباشا وذراعه اليمنى، لا تزال الأحاديث مستمرة عن علاقتنا لكنّي لا أهتم، لقد تخلّصت من أفكاري وضعفي بمجرد ارتدائي لهذا الساتر، لا أهتم بأيّ شخص يتحدّث ما دام الكلام داخل حدود هذا الكوافير، ما دام الكلام عن جيجي وليس نجلاء، أنا أخرى هنا، أخرى أكثر ثقة وقوّة، وليذهب الجميع إلى الجحيم.

أدخل كل صباح إلى الكوافير فيصمت الجميع في أثناء مروري.

أجلس في مكتب الباشا لحين وصوله، ثم أمرّ على جميع الغرف، أتابع سير العمل، أتابع الحسابات، والنظافة، وشكاوى العميلات، لا تمرّ كبيرة أو صغيرة قبل المرور عليّ.

الباشا يثق فيّ ثقة عمياء، وأنا لا أريد سوى راحته.

لا أريد سوى هذه الساعات التي يقضيها معي كل أسبوع أو أسبوعين.

أحلم بأن أظهر معه أمام الناس، أحلم بميعاد رومانسي يجمع بيننا، أحلم بأن أتزيّن له، أرتدي فستانًا مذهلًا، وأن يصحبني لمطعم فاخر، ويفتح لي باب السيارة بنفسه، أتأبّط ذراعه وأسير بجواره.



أحلم بأن أرقص معه على موسيقى حالمة، وأن أطعمه بيدي ويطعمني بيده، أحلام حمقاء لمراهقة صغيرة، لكنّها كل آمالي في الحياة.

أصارحه بها بعد مرّة عاجلة نمارس فيها الحب بسرعة السارقين، فيبتسم بسخرية وهو يرتدي ملابسه..

- المرّة القادمة ذكّريني أن نرقص أولًا، كله من وقتك يا جيجي.

أبتسم مجاملة والغصّة تملأ حلقي، يغادر الشقة دون أن ينظر إلي.

أستلقي مكاني محدّقة في السقف المظلم بلا أفكار، مَنْ في هذا العالم تملك حياة أكثر زيفًا مِنّي؟ أشعر بأنّني موصومة، غارقة في مستنقع لا أستطيع الخروج منه.

أغوص فيه أكثر، الوحل يطبق على صدري، فلا أستطيع التنفس.

أنهض من مكاني وأعيد ارتداء ملابسي، أضع النقاب على رأسي، العالم من حولي يكتسي بالسواد.

أجُرُّ قدميَّ جرًّا إلى الشارع، أركب سيارتي للعودة إلى الكوافير.

يرّن هاتفي، زوجي يتصلّ،لا أرد، أنتظر حتى أتوقف على مقربة من المحل، أنزع النقاب من على رأسي بعنف، شعري يتناثر حول وجهي، أمسك بالهاتف لأتصل أنا به، يرد عليّ سائلًا، أين أنت؟



- في العمل أين سأكون؟

- هاتفك مغلق منذ ساعتين.

- كنت أعمل وماذا في ذلك؟ هل هذه أوّل مرّة؟

- لا هذه ليست أوّل مرّة يا هانم، متى تعودين؟

- ليس هذا من شأنك مثلًا؟

- فعلاً؟ إذن لا تعودي، ولا تفكري في الأولاد لأنّك لو فعلت سأفضحك يا نجلاء، وأنتِ تعلمين كيف، لن أسمح لهم بالعيش مع زانية، ورقتك ستصلك إلى، إلى العمل.

يغلق الهاتف في وجهي، أشعر أن ساقيَّ لا تقويان على حملي.

طوال الوقت يفكّر الباشا في حياته ومنظره الاجتماعي، بينما لم أفكّر أنا في أولادي قط.

أندفع وراء مشاعري كأيّة مراهقة، أسمع وأطيع، لا أحلم سوى بقبلة ورقصة وحضن وكلمة حلوة، والآن ماذا؟

أنظر في مرآة السيارة، يفزعني شكل وجهي المنتفخ، الكحل يبدو كبقع سوداء حول عينيَّ، أحاول مسحه بالمنديل وتشذيب خصلات شعري بأصابعي، واضع بعض الحمرة على شفتيّ، أعدل ملابسي وأتجه إلى المركز.



أسأل عن الباشا لتجيبني الفتاة الجالسة على الكاشير بأنّه لم يأت بعد. أطلب منها أن تبعث لي نادية بالقهوة على مكتبه.

أجلس وحدي وأنا آخذ أنفاسي بصعوبة.

هل سيساعدني الباشا؟ أو ما الذي سأفعله وحدي؟ وحدي تمامًا في مواجهة عصبة كاملة: طريق المحاكم الطويل، ونفوذ زوجي الذي لا يمكن ردّه، حتى أولادي لو سألتهم سيختارونه هو بلا تردّد.

لا فرصة لي في أيّ شيء، ولا نصف فرصة.

أفتح درج المكتب أمامي، أتأمّل علبة الترامادول الكبيرة التي يمنح منها الباشا للعمال حباية أو اثنتين على سبيل المكافأة من حين لآخر، ماذا سيحدث لو ابتلعتها كاملة، أعتقد أنّني أيضًا أستحق المكافأة، أبتسم للفكرة التي تعجبني..

تدخل نادية وتضع القهوة أمامي بصمت ثم تستدير مبتعدة..

لا أرفع عيني إليها، لكنّها تتوقّف فجأة ثم تعود إلي، وتقترب منّي كثيرًا فأنتبه لها، تجثو على ركبتيها أمامي، أنظر إليها بتساؤل.

تضع يديها على وجنتيَّ الساخنتين.

- ماذا؟



- إنّهم لا يتخلّون أبدًا عن الزوجة من أجل العشيقة.

- ماذا تقولين؟! هل جننت؟

أصرخ فيها بعنف لكنّها لا تهتزّ، تنظر إلي بعطف غريب.

هذه الفتاة المخبولة تنظر إلي أنا بشفقة.

- أنت لست مزيّفة ولست موصومة، أنت قادرة على الخروج من هذا المستنقع.

- اخرجي بره، حسابك سيكون عسيرًا عندما يصل الباشا.

كنت أنتفض غضبًا وخوفًا، جيجي التي يخاف منها الجميع تفلح فتاة حمقاء وعرجاء في إخافتها.

وكأنّها تقرأ أفكاري، مَنْ أخبرها بكل هذا، هل يتحدّث معها الباشا، هل أخبرها بما بيننا، مَنْ تكون هي بالنسبة له؟ ستكون الأيام القادمة سوداء على رأس الجميع.

لكنّها تصر على التشبث بوجنتيّ، تنظر في عينيّ فقط، الغريب أنّني أصمت، أشعر بالرغبة في البكاء، أبكي فعلًا، فتربت على وجنتيّ أكثر.

الغريب أنني أشعر ببعض التحسن، الفتاة غريبة فعلًا، أشعر ببعض الخوف



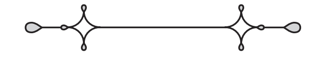
ناحيتها، ثم يتغيّر هذا الخوف إلى حب وثقة، أنظر إليها بدهشة، كانت الأفكار السوداء تبتعد عن رأسي، يعود إلى عقلي وجه طفليَّ، أشعر أن الحياة ليست بهذا السوء، هناك عشرات الطرق التي أستطيع بها نزع حقي، المعركة ليست صعبة إلى هذا الحد، كيف سمحت لنفسي بالانهزام؟

حتى الباشا يبدو كأنه غير مؤثر، للمرة الأولى منذ سنين لا أشعر بهذا الثقب في روحي الذي لا يسده سوى حضرته، يمكنني أن أعيش من دونه، يمكنني أن أستفيد منه دون أن أمنحه شيئًا.

تربت نادية على وجنتيّ أكثر فأشعر بالتحسّن.

أبتسم لها ممتنّة، فتبدو وكأنّها أتمّت مهمتها، لكنّها تبدو وكأنّها أكبر عمرًا، عيناها حزينتان وكأنّها شهدت خبرة مروّعة، تنهض واقفة أمامي، تنظر إلي وتقول: هل فكرت في كوافير جيجي؟

أحاول أن أبتسم لها، لكنّها تغادر فورًا بلا كلمة أخرى.





نهال

هكذا تحدّثت العاهرة..

يصلح عنوان رواية، أو فيلم أجنبي من إخراج تارانتينو، لا يصدق بعضهم أنّني أشاهد أفلام تارانتينو، ويضحكن حتى يسقطن على الأرض إن علموا أنّي أقرأ.

في المرّات القليلة التي أضطر فيها إلى إدخال أحدهم إلى بيتي، أعلم جيّدًا ردّ فعله الأول، الصدمة.

الحوائط مليئة بالكتب إلى السقف، كتب على الأرائك، على مائدة الطعام، بجوارالسرير، كتب ومجلات وجرائد، جهاز تلفزيون عملاق موصل بهارد



منفصل، عليه كمية أفلام مهولة تكفي لتعييني خبيرة في السينما العالمية في وزارة الثقافة.

هل هناك منصب كهذا؟ ربما يجدر بهم ذلك، هذه البلاد ذاهبة إلى الجحيم بالتأكيد.

أضع معطفي على ظهر المقعد، أزيح بعض الكتب لأتمكّن من الجلوس، لقد قرّرت التوقّف عن العمل اليوم؛ حدادًا على الفتاة المسكينة التي قتلت نفسها في الكوافير.

- استراحت.

أحدّث نفسي بصوت عالٍ كعادتي في البيت حتى لا أُجنّ، أنسى متى كانت آخر مرّة تحدّثت فيها، أظلّ أيامًا بلا صوت، أقرأ وأشاهد الأفلام حتى أفقد الوعي.

لازلت أذكر المرة الأولى التي أمسكت فيها كتابًا.

يجلسني الزبون على ساقيه ويغمس رأسه في صدري، أنظر حولي محاولة تزكية الوقت كما أفعل عادة بفعل الملل. تستوقفني المكتبة الضخمة خلف ظهره، أمرّر عيني على العناوين، جمل كبيرة، كلمات تبدو مهمة، أحاول القراءة والرجل يهزّ جسمي بلا توقف.



ذ.. ذاكرة غانياتي الحزينات؟

يرفع الرجل رأسه بلا فهم، أشير له نحو الكتاب وأسأله عن معناه، ينظر إلي بلا تصديق ويقهقه ضاحكًا، ردّ الفعل نفسه الذي سيقابلني في كل مرّة أتحدّث فيها عن كتاب، أو أشتري كتابًا، أو أحمل كتابًا.

ينهض من مكانه ويخرجه من المكتبة، يضعه بين يدي..

- تعرفين القراءة يا نهال؟

- بالتأكيد، مَنْ تحسبني؟

الأحمق، لقد أنهيت معهد الخدمة الاجتماعية بتقدير جيد، النظرة السطحية لي دائمًا ما تكتئبني.

في هذا العالم، يعتقد الجميع أنّ الجميع مسطّحون، الأفلام خرّبت عقول البشر.

- خذي الكتاب إذن هدية منّي. أضعه في حقيبة يدي، ويعود هو لما يفعله، أمّا أنا فأشعر ولأوّل مرّة بالإثارة، وكأنّ هناك شيئًا ما ينتظرني في بيتي البائس بعد العودة.

أنت تعرف الجملة الدائمة التي يخبرونك بها عن الكتب، كيف أنّها نافذة تحملك لعوالم أخرى.



إنّها جملة صادقة فعلًا، كانت الكتب طريقي للهرب، إنّها ملاذ الشخص المحاصر في عالم لا يرغبه، إلى عالمه الآخر المناسب.

وأنا كنت محاصرة، وكانت الكتب لي ملاذًا.

أنهيت الكتاب في ثلاث ساعات، كنت أبكي في كل صفحة، أبكي وألتهم السطور، وبعد الانتهاء كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، توجهت فورًا إلى مكان أعرفه جيّدًا.

السور القديم المجاور لمستشفى الحُمّيات، الذي يكتظ بباعة الكتب القديمة والمستعملة، أقف أمام كل فرشة بفضول، أمرّ إصبعي على العناوين، يسألني البائع إن كنت أريد شيئًا.

ينظر إلي بفضول؛ فشكلي لا يوحي له بالقراءة.

أنظر إليه بنظرات تائهة. تثبت عيناي على اللحام في منتصف نظارته، أقول أريد أيّ كتاب لـ لـ....

أنسى الاسم فأخرج الكتاب من حقيبتي، يقرّبه إلى نظارته ويقرأ، جابرييل جارثيا ماركيز، بالطبع، لكنه صعب جدًا لسيدة تبدأ القراءة.

- قرأت هذا الكتاب وأعجبني.



- هذا حسن لكني أنصحك بالتمهل قليلا

يعود لي برزمة كتب ضخمة، أعرف بعض العناوين التي هي نفس عناوين أفلام عربية أحبها كثيرًا، يعرفني على عالم إحسان عبد القدوس، ومنه إلى يوسف السباعي ونجيب محفوظ، حتى ماركيز أنهى أعماله الكاملة قبل مرور عام واحد على هذا اللقاء.

صرت زبونة مستديمة لدى الرجل ذي النظارات الملحومة، أظهر أمامه فيخرج لي الكتب التي تركها جانبًا وخصيصًا، يمتلئ المكان بالكتب، أقرأ وأقرأ فقط، تدخلني الكتب إلى عوالم السينما، أبتاع حاسبًا شخصيًا للبحث عن المؤلفين، أبحث عن أيّة معلومة أقرأها، أحمل الأفلام المأخوذة عن القصص.

لقد أصبحت مدمنة، أفضل من أن أكون منتحرة.

مهووسة أنا بفكرة الموت، أفكّر دائمًا في كيفية الموت، كيف سيحدث، متى؟ أين؟ من سيكتشف جثتي؟ من سيغسّلني؟ ما الذي سيقولونه عنّي؟

«عاهرة بنت كلب، الحمد لله أنّها ماتت واسترحنا من نجاستها».

نجسة..

هكذا قذفني أبي بالكلمة وكأنّها بصقة تصيب وجهي كلما مررت من جانبه في



أثناء خروجي من بيتنا في الطابق الأول من البيت المتهالك الذي يقع على جسر السكة الحديدية في الكفر القديم.

يجلس أبي دائمًا على باب البيت لا يفعل شيئًا، يجلس بالفانلة وسروال البيجاما المتسخ، يدخّن ويبصق على الأطفال المتّسخين نصف العراة، الذين يلعبون ويسبّون بعضهم بألفاظ أكثر قذارة منهم.

أمرّ من أمامه وأنا أرتدي ملابس المدرسة التي أحاول إبقاءها نظيفة ومهندمة بقدر الإمكان وسط كل هذه القذارة، أحاول مداراة جسمي الفائر الذي يمنحني عمرًا ضعف عمري، ولَمّ شعري الطويل في كعكة بسيطة، لكنّه يتأمّلني من فوقي لتحتي بقرف، ويصرّ على سبي.

نجسة..

منذ أن أتتني الدورة الشهرية في عمر العاشرة وهو يصرّ على نجاستي، لم أفهم ما السبب؟ وما ذنبي في البلوغ المبكّر، كنت المصيبة التي حلّت على المنزل مبكرًا، والتهمة التي حملتها دون أن أعرف السبب، كان من الواجب أن أجلس في المنزل لأساعد أمي في خدمة البيوت، لكنّ واحدة من السيدات اللاتي تخدمهن هدّدتها بألاّ تطلبها من جديد لخدمتها هي وجميع جاراتها إن منعتني من مواصلة دراستي.



تنظر إلي الفتيات بحسد منذ المرحلة الإعدادية إلى اليوم، الفتاة الطويلة ذات الثديين المكتنزين، والوحيدة التي رفعت يدها باستحياء، عندما مرّت الأخصائية الاجتماعية على الفصول توزّع الفوط الصحية المبعوثة من الشركة الشهيرة لدعم الطالبات، تسأل من منكن أتتها الدورة؟

أكاد أذوب خجلًا، أوفّر القروش القليلة التي تمنحها لي أمي لأشتري علبة من الفوط الصحية تكفيني شهرين، حياتي كلها باتت تدور حول هذه الفترة من الشهر، لا أفكّر سوى فيها، أحسب وقت مجيئها حتى لا تفاجئني في المدرسة أو الشارع، أطلب من السيدات اللاتي تخدمهن أمي أن يبحثن لي في خزانات بناتهن عن الملابس القديمة الداكنة، أسألهن باستحياء عن سبب الألم القاتل في أسفل بطني، فيضحكن.

تُناولُنِي إحداهن قرصًا مسكنًا، أو كيسًا من فوار سحري يقتل الألم.

أعبر الشارع الضيق، والفتحة التي صنعها الساكنون في سور الجسر ليتمكنوا من العبور بدلًا من اللف حول السور.

أسير فوق قضبان السكة الحديدية وأكوام القمامة التي تحيطهما على الجانبين، طيور أبو قردان تحلّق عليهما، والرائحة التي هي مزيج من القمامة المتعفّنة ورائحة اليوريا لمئات الرجال الذين يقضون حاجاتهم طيلة الليل على جانبي



السور تزكم أنفي، تلتقط عيني العضو الذكري لرجل يحاول إدخاله إلى سرواله بعد التبوّل، يلمحني فيتمهل في إغلاق السروال، يبتسم ابتسامة المساطيل التي أعرفها، فأسرع من خطواتي لأعبر الطريق، وأصل إلى المدرسة.

أحبّ المدرسة وأحبّ المذاكرة، أحاول بالرغم من كل شيء أن أجتهد في دروسي، لا أملك ترف الدروس الخصوصية، ولا ترف الغرفة الخاصة في منزل ينام فيه الجميع: أبي وأمي وأخوان صغيران بجوار بعضهم بعضًا على الأرض، لكنّي أظل جالسة في أبعد نقطة ممكنة على البلاط البارد للحمام، أقرأ الدروس حتى أنام.

أستيقظ على لمسات أبي اليومية لجسدي فأنتفض، يبعد يديه بسرعة، يعدّل من سروال بيجامته وينظر إلي باحتقار، أضمّ ساقيّ حول جسدي، يبصق على الأرض بجواري، اعتدت لمساته منذ صغري، فلم أعد أندهش، أشعر بالغثيان يتصاعد إلى حلقي، أشعر بأنّني نجسة فعلًا كما يقول.

أنتظر حتى يخرج إلى مكانه المفضّل على عتبة الدار، وأغلق باب الحمام المتهالك علي، لا ترباس ولا مفتاح في هذا البيت، لا أبواب مغلقة ولا ستائر.

أحاول إسناد الباب بساقي بينما أصب الماء على رأسي وجسمي بسرعة، أحاول حكّ النجاسة من على جسمي بالطوبة السوداء الخشنة بلا جدوى.



أنا نجسة منذ الصغر كما حكم عليّ أبي، وكما حكم عليّ صمت أمي المتواطئ، وكما حكمت عليّ نظرات الجيران التي تعرّيني كل يوم، ونظرات زميلاتي، ونظرات مدرسيني، ونظرات العابرين.

أنتظر الجامعة بفارغ الصبر، أستلم المظروف وأجلس على مائدة أمّ خالد، بينما تنظّف أمي غرفة نومها القصيّة، تجلس ابنتها بجواري تساعدني على كتابة الرغبات ولصق الطوابع.

- ما هي رغبتك الأولى يا نهال؟

- أيّ شيء بعيد، الإسكندرية مثلًا.

- لماذا؟ تريدين السفر والشحططة بعيدًا عن أهلك؟

أنظر إليها مطولًا، وجهها أبيض هادئ، عيناها ناعستان، وملابسها طويلة واسعة.

تتبدّى صديرية تحت جلابيتها نصف الشفّافة بلا خوف، هي غير مضطّرة لربط الإيشارب حول صدرها مرتين حتى لا تظهر استدارته؛ اتّقاء للعيون.

- أريد معهد الخدمة الاجتماعية في الإسكندرية.

أريد أن أكون وحدي بعيدًا عن البيت الصغير المزدحم، عن أمي التي لا أراها



حتى نسيت شكلها، عن أبي ولمساته وصوته الخشن المرعب الذي أتذكّره الآن فيرتجف قلبي، عن صوت القطار الذي يرجّ البيت المتهالك، عن شجار النساء المتواصل طيلة اليوم في الشارع، وشخر الرجال لبعضهم طيلة الليل وهم يتقاسمون الحشيش أمام فتحة الجسر، عن النظرات التي تطاردني وتعرّيني، وتتّهمني بالانحطاط، وتتدخّل في تفاصيل جسمي واكتناز صدري، وميعاد دورتي الشهرية.

معهد الخدمة الاجتماعية بالإسكندرية

محطتي الأولى في سبيل الحرية، أو هكذا حسبت.

اعتراضات أبي في السفر لم تمنعني عن شيء، كنت أنهي أوراق الالتحاق والمدينة الجامعية بلا كلام.

كلامه ووهنه والحشيش الذي يلف عقله طيلة الليل والنهار لم يجعله قادرًا على الاعتراض سوى بكلمات مبهمة أسكتتها أمي ببضعة جنيهات، وأسكتّها أنا بنظرتيّ احتقار.

تلف أمّي على بيوت مخدوميها تجمع لي بعضًا من قطع الملابس اللائقة بفتاة في الجامعة، أقيس بعضها لتعدّل من المقاسات بيديها، تمسك ذقني بيديها، وتقول: «سامحيني»..



- على ماذا؟

تنظر إلي وتبتلع ريقها، ثم تخفض عينيها إلى الأرض دون ردّ.

أعرف ما الذي تعنيه فلا أردّ أيضًا، هذه الأمور في بيئتنا ليست بالشيء الغريب، نحن لا نهتم كثيرًا بهذه الأشياء.

فيما بعد، عندما قرأت كثيرًا وشاهدت مئات الأفلام، أدركت أن هناك عشرات المدللات اللاتي يملأن الدنيا صراخًا عندما يتحرش بهنّ أفراد من عائلاتهن، يذهبن للطبيب النفسي، ويبتلعن عشرات الحبّات المخدّرة، بنات الطبقة الثرية يكبّرن المواضيع، أمّا نحن، البنات اللاتي ولدتنا أمهاتنا وحدهن على بلاط البيت لتستقبلهن الداية بلطمة، ثم تلفهن بخرقة متّسخة وانتهى الأمر، اللاتي يكبرن وهُنّ يلهون بأرجل حافية، ويأكلن الطين والقمامة دون أن يصبن بالتيفويد، ولا حتى النزلة المعوية، لا يتأثرن كثيرًا بهذه الأمور.

أفكر فيه على أنه مجرد رجل أحمق ووغد أتمنّى أن يموت محترقًا وانتهى الأمر.

لكنّي لن أوقف حياتي من أجل هذا، لن أجلس لأبكي وأندب وأكتئب في غرفة مظلمة، أريد أن أطير وأبتعد، أريد أن أجرّب الحياة بعيدًا، أريد أن أحتفي لأوّل مرّة بجسمي وجمالي دون خوف، الإسكندرية تنتظرني، حياة الجامعة تنتظرني، يمكنني أن أكون طبيعية للمرة الأولى في حياتي.



لكنّ الوضع لم يكن كذلك بالضبط.

المعهد كان مثل المدرسة تمامًا، أنا بطولي الفارع وشعري المنسدل، كنت مثل الجسم الغريب وسط كل هؤلاء المحجبّات والمخمرات والمنقبات والملتحين.

النظرات التي هربت منها من الكَفْر القديم في المدينة الصغيرة، لا تختلف شيئًا في الإسكندرية الكبيرة.

إنّها أكثر قسوة وتشددًا، سواء في الجامعة، أو في المدينة الجامعية.

اعتدت تلقّي دعوات العودة إلى الله كل يوم، «كُتيّبات الحجاب قبل الحساب»، التودّد الزائف من الفتيات في الجماعات الإسلامية لضمّي إليهن، ثم الابتعاد فورًا بعد رفضي بأدب.

التودّد تحوّل لتحرش لفظي وجسدي. أمرّ من جانب مجموعة من الفتيات ببنطلون جينز وكنزة ثقيلة، تلقي إحداهن الكلمة على أذني:

نجسة..

أقف مكاني متجمدة، تشتعل النيران في جسدي كله، نَفَسي يتثاقل وقلبي ينبض في أذنيّ، أفكّر في الاستدارة إليها ولطمها على وجهها، لكنّي أتحامل على نفسي، أريد اجتياز العامين في هذا المكان والحصول على مؤهل يسمح لي بالعمل والانفصال وحدي بعيدًا عن الجميع.



أغادر المعهد وأتوجّه إلى الكورنيش، أجلس وحيدة في الطقس البارد، رأسي خالٍ تمامًا من الأفكار.

في جيبي لا أملك سوى عشرة جنيهات متبقّية من المائة جنيه التي تمنحها لي أمي كل شهر، وفي قلبي هناك ثقب يتّسع كل يوم.

يتّسع ليبتلع مشاعري وأحلامي.

أشعر بالبرودة تغلف عالمي، البرودة تغلّف كل شيء؛ لذا ما الذي يمنعني أن أنهض من مكاني لأركب هذه السيارة التي يشير سائقها لي، ويفتح بابها الفاخر، داعيًا إيّاي لأن أستريح على كرسيّها الوثير الدافئ؟ ما الذي يمنعني أن أضاعف النقود في جيبي؟ وأن أعرف طريقًا لي؟

لا شيء يمنعني..

في الواقع كان الأمر بسيطًا جدًا، لم أشعر بأيّ شيء، لا مشاعر ولا تأفّف، ولا خجل ولا رعب ولا شيء.

أترك الرجل ينهي ما يريده منّي بكل راحة، بضع قطرات من دماء أثبتت تهمة النجاسة عليّ أمام نفسي فقط، لكنّها برّأتني منها أمام الجميع.

في اليوم الثاني، ابتعت بالنقود التي منحني إياها الرجل الكريم ملابس واسعة فضفافة وطرحتين أنيقتين، منحتني جواز المرور لقلوب الجميع في المعهد.



لقد استقبلوني استقبال الأبطال والفاتحين.

صرت المحبوبة والمفضّلة لدى الفتيات، وحلم الفتيان الأول.

يأتي خُطَّاب ومتودّدون، فأصدّهم بخجل متحجّجة بالدراسة.

أصلّي مع البنات في المصلّى، وأغادر المعهد بسرعة لأبدّل ملابسي في بار صغير في محطة الرمل.

أذهب مع زبون أو اثنين قبل ميعاد إغلاق المدينة الجامعية.

عامان كاملان كانا كفيلين بامتلاكي ثروة صغيرة، لأعود إلى مدينتي بشكل مختلف وبهيئة مختلفة.

تمكنّت من شراء شقّة صغيرة في شارع عائلتي القديم نفسه، وإنما على الشارع الرئيس الذي لا يطلّ على جسر السكة الحديدية، لم يسألوني عن أيّ شيء، لا مصدر الأموال ولا تغيّر مظهري، حجة غبية يكاد الأحمق يتبين ضعفها بأنني وجدت عملًا جيدًا في شركة كبرى كانت كافية لإسكاتهم، بينما تركتهم أنا إلى وسط المدينة، إلى شقتي الجديدة التي استأجرتها قريبة من كوافير الباشا، حلمي الذي تحقّق.

منذ الصغر، أمرّ على هذا الكوافير وأحلم باجتياز أبوابه الزجاجية، فعلتها مرّة واحدة، عندما أرسلتني مخدومة أمّي إلى ابنتها العروس ببضعة حاجيات كانت



نسيتها قبل التوجّه إلى هناك يوم عرسها، كنت أجمل من جميع النساء داخل المحل.

وكان هو أجمل مَنْ رأتهم عيني..

لأوّل مرّة أشعر بشيء تحرّك فيّ، الباشا الذي تنظر إليه جميع النساء ولا ينظر لأحد.

أخجل من أن يراني بهذه الهيئة المزرية، أتسحّب من جانبه وهو ينزل الدرج، تسير بجواره سيدة جذابة تتحدّث بصوت حاد، تبدو وكأنّها مسيطرة عليه تمامًا، يستمع إليها بإنصات، يطرق أرضًا ولا يرى العيون التي تتبعه بصمت، يوقفه شاب من العاملين، يستشيره في شعر فتاة جالسة أمامه، يلمسه بيده فأرى الفتاة تنتفض، أرفع حاجبيّ تعجبًا، تصيح فيّ مرافقتي أن أسير، فأكمل صعود الدرج وأنا أحمل الحقيبة الثقيلة إلى مخدومتي العروس.

وقعت في غرام الكوافير، وصخبه، وهوائه المحمّل بأبخرة «السشوار» والكريمات ورائحة الشامبو العطرة، أصوات المقصّات تعمل في شعر النساء، واحتكاك الفتلة على وجوههن، صوت المبارد في أظافرهن، والغرفة البعيدة المغلقة تطلّ من شبّاكها وجه سيدة حزينة وحيدة.



أمّا الباشا، فهو الوجه الوحيد الذي أسترجعه في الليالي الباردة الوحيدة الخالية من العمل.

لكي أندمج في بلدتي الصغيرة بعد العودة، كان لزامًا عليّ أن أتّبع الأصول، فهي ليست كالإسكندرية، يكفي التمشية على كورنيشها دقيقتين للاسترزاق، البحر واسع ويكفي للعمل دون الاختلاط الكبير بشبكاتها المعقّدة.

كان يمكن أن أقضي حياتي بمساعدات بسيطة من صديقي جرسون البار، مقابل بعض البقشيش السخّي للحماية.

أمّا هُنا، فستار التغطية، والعلاقات الشرعية أمر حتمي.

السمعة لا تهمّني في شيء، لكن يهمّني حتماً ألاّ يتعرّض لي أحد.

أن أتمكّن من الذهاب والمجيء بحريتي، أريد أن أعيش بهدوء، لا أريد نظرات أخرى تشيّعني، لا تختلف شيئًا عن نظرات الجميع التي ظلّت تطاردني منذ الولادة إلى الرحيل.

أحمل كارت توصية من صاحب أشهر قاعة أفراح في المدينة، زبوني العزيز الدائم خلال عطلاته مع أسرته السعيدة في الإسكندرية.

أتوجّه إلى مقر فرقة شهيرة لا تزال تقدّم فقراتها الغنائية والاستعراضية في الأفراح.



أبدو كحورية من الجنة، أرتدي فستانًا أبيض ضيقًا مفتوح الصدر، أستعرض ثدييَّ المكتنزين هذه المرّة بلا إيشارب يربطهما، ولا قمصان واسعة تخفيهما، أترك شعري منسدلًا وطويلًا، أضع مكياجًا هادئًا لكنّه كافٍ لتدويخ الجميع.

أطرق باب الشقّة الحقيرة في الطابق الأرضي بثقة، يفتح لي الباب شخص يفغر فاه انبهارًا حين يراني، أسأله عن مدير الفرقة، فيفتح لي الباب بصمت، نصف ساعة وكان الأمر منتهيًا.

نهال مغنّية الأفراح الجديدة الأكثر طلبًا في المدينة.

إن كان الباشا هو قبلة العرائس ليلة زفافهن، فـ «نهال» هي اختيار العرسان الأول أيضًا.

أنا فرصتهم الأخيرة لتأمّل جمال النساء قبل الارتباط الدائم بامرأة واحدة في بيت مغلق لا فرار منه.

يظلّ العريس محدّقًا فيّ طيلة الليلة، فأتأكّد أنّني سأكون محل عروسه الليلة على الأقل في أحلامه، مثلما سيكون الباشا محلّه في خيال عروسه.

هذا هو العدل إذًا؟

أنا والباشا نتضاجع كل ليلة في خيالات عرسان المدينة، فماذا عنّا؟



أذهب إلى الكوافير كل أسبوع، أدخل أولًا إلى مكتبه، أجلس أمامه واضعة ساقًا فوق ساق.

إن كان الجميع يتأثّرون بجسم نهال ووجهها ، فالباشا لا يتأثّر.

تطلق جيجي عليّ نظرات من نار من خلف زجاج المكتب، فأبتسم لها بسخرية وألتفت للباشا.

أخرج سيجارة، وأنحني عليه لأكشف عن صدري أكثر، فيشعلها لي دون أن يسرق ولو نظرة، يعاملني الباشا كامرأة راقية، رغم كل ما يسمعه عنّي، وما يتردّد عليّ.

أسمع الضحكات والهمهمات من العاملين في الكوافير بأذني، أتجاهلها، بل وأزيدها، لعلّه يسمعها، لعله يطلبني ذات يوم، بمقابل، دون مقابل، لا أبالي، لا أريد قصّة حبّ شعواء، لا أفكّر في الزواج مثلًا، أريده فقط، مرّة، مرّتين.

أريد أن أجرّب للمرّة الأولى في حياتي الجنس بالحبّ، أن أشتهي رجلًا ما، أحبّه فعلًا، أشعر به داخلي، مثلما أقرأ في الكتب، مثلما أشاهد في الأفلام..

يتجاهلني الباشا بلطف، يتحدّث معي بشكل لائق.

أسأله عن لون الصبغة الذي يليق بي؟ يردّ بشكل جاد، يلمس خصلات شعري، فيدقّ قلبي بسرعة، أشعر بالحرارة في وجهي وأذنيّ.



أسأله عن بشرتي الجافة، فمدّ يده إلى وجنتيّ مدلّكًا، أكاد أصل إلى النشوة التي لم أصل إليها قط.

يقترح عليّ عدّة كريمات مرطّبة، يتحدّث بجدّية شديدة، وأنا أنظر إليه بولهٍ.

تقتحم علينا جيجي الغرفة بلا سبب.

- الباشا يجب أن يبدأ العمل، اليوم عرائس كثيرة، لعلّك ستغنّين في فرح إحداهن؟

- بالتأكيد.

أنهض من مكاني وأبتسم لها بجانب فمي، نظرتها تذكّرني بنظرة أبي.

جيجي تذكّرني به كثيرًا، ولا أعرف لِمَ؟ أتوجّه إلى الغرفة المقابلة على مهل.

أتعمدّ المشي ببطء لإغاظتها أكثر، أدخل إلى غرفتي المفضّلة المظلمة أخيرًا.

«مُنى» تجلس هناك وحدها تتأمل في اللا شيء.

- مساء الخير يا مُنمن.

- نهال، لم يفت أسبوع على زيارتك الماضية، شعرك لم يطل بعد، ما الذي تفعلينه هنا؟

- الجذور بدأت في الظهور، وأنا لا أطيق منظر الشعر.



- أنت مجنونة، هكذا ستحبسين الشعر أسفل الجلد.

- أنا أحب النظافة، سأخبر الباشا أنّك تطفّشين الزبائن.

تضحك مُنى ضحكتها المكتومة.

تنهض بصعوبة من مكانها، الدهون تتراكم أكثر على جسمها في كل مرّة أراها فيها، لكنّ وجهها كما هو، ملائكي وشاحب، مثل صورة «العذرا» التي أراها في الأفلام الأوروبية بالذات.

تدخل علينا نادية بلا استئذان، تجُرّ ساقها العرجاء وتبتسم لي.

أرد لها ابتسامتها بصمت، أحبّها بنظرتها الخاوية التي لا تحكم على أحد.

الوحيدة التي لا تنظر إلي باحتقار أو شهوة أو حقد، تنظر إلي كما تنظر إلى مُنى أو الباشا أو جيجي، أو أيّ شخص آخر.

أشعر أنّها تعيش في عالم بعيد عن عالمنا، ربما تكون مصابة ببعض القصور العقلي.

- نادية، ناوليني المنشفة من الخزانة وراءك.

تناديها مُنى فتطيع فورًا، تمرّ من جانبي، تلمس شعري الطويل منبهرة.

- أنت جميلة جدًا.



- أشكرك، وأنتِ أيضًا.

تبتسم بخجل وتسرع إلى مُنى التي تحضّر الغرفة، تغادرها فأدخل أنا، أخلع ملابسي كلها وأجلس أمامها.

- هل الفتاة متخلّفة عقليًا أو شيء من هذا القبيل؟
- من؟ نادية؟، لا، أبدًا، هي فقط طيّبة جدًا.
- أشعر بأنّها في عالم آخر.

تلتفت نادية خلف كتفها ثم تنظر إلي.

هي فقط، أشعر أحيانًا وكأنّها، تقرأ الأفكار.

أضحك بصوت عالٍ متحشرج، تقرأ ماذا؟

- وكأنّها تقتحمني، تفهم ما الذي أفكّر فيه، أو أودّ فعله...

أعقد حاجبيّ وأزمّ شفتيّ متعجبّة، هذا هو مستقبلي، أن أجنّ مثل مُنى...

- هل تعِديني إن مِتّ ذات يوم بأن تغسّليني أنتِ يا مُنى؟
- لا يجوز، أنا مسيحية هل نسيت ذلك؟
- لا أحد يعرف، ارتدِ أيّة قطعة قماش على رأسك وسوف يدعونك، ثم لا أحد سيقبل بتغسيلي على كل الأحوال.



- لماذا تحملين همّ الغسل بهذا الشكل، ستكونين في عالم آخر لن تشعري بشيء.

- لكنّي أودّ أن أقابل الله نظيفة.

ترفع مُنى عينيها إليّ، تبدو في غاية الجديّة.

- نهال، أنت نظيفة فعلًا، أنت كذلك.

ثم تكسي صوتها بنبرة ساخرة..

- ثم أنك صغيرة جدًا، ماذا تركت لي إذن؟

يختنق حلقي قليلًا، تغادرني حتى أغتسل وأرتدي ملابسي، لم تكن هناك وأنا أغادر الغرفة، أترك لها في درج مكتبها بقشيشًا سخيًا، أتلفّت بحثًا عن نادية لأمنحها هي الأخرى فلا أجدها.

أرى الباشا مستندًا على ظهر مكتبه وجيجي واقفة أمامه وكأنّها ستجلس في أحضانه.

يتودودان بلا قلق أمام الجميع، تنظر إلي بطرف عينيها وكأنها تغيظني، فأسرع بالرحيل من أمامهما.

أغادر الكوافير، تلاحقني الضحكات المكتومة والغمز واللمز، أتعمّد التمهّل والتغنج في مشيتي لأثير غيظ الفتيات وأعصاب الرجال أكثر.



مزّيفون، يعتقدون أنّهم أفضل وأذكى لكنّهم لا يفرقون كثيرًا عن أيّ حجر أضربه بطرف حذائي في الشارع.

يصيب الحجر الفتاة الجالسة على الرصيف أمامي، ترفع عينيها لي، نادية تجلس متكومة مثل الشحاذين في الظلام.

- لماذا تجلسين هنا؟
- كنت أنتظرك.
- آه، أنا كنت أبحث عنك.

أبحث في حقيبتي عن عشرة جنيهات، لكنّها توقفني، لا أريد نقودًا، أريد أن آتي معك.

- أين؟
- أريد أن أشاهدك تغنّين، أنت مطربة أليس كذلك؟
- أنظر إليها بشفقة، ابتسامتها المتحمّسة تجعلني لا أريد أن أصدمها.
- تتركين عملك؟
- الباشا لن يقول شيئًا.
- لماذا؟ هل تسحرين للباشا؟



تضحك، تمشي بجواري دون انتظار إجابة، أفتح سيارتي لتركب بجواري.

نتّجه إلى الفرح الشعبي بقرية على أطراف المدينة، الطريق مظلم لكنّه ليس بعيدًا، والحقول لا تزال تدخل علينا رائحة نضرةً للخضرة المبتلّة بقطرات الماء.

تخرج نادية رأسها من النافذة لتشمّ النسيم المشبّع بالرائحة، تغمض عينيها في سلام تام، بينما أفكّر أنا في الليلة الثقيلة القادمة..

نكاد نصل، أنبّهها فتدخل رأسها، وتعدّل شعرها وملابسها.

أتوقّف إلى جانب القاعة المضيئة بالأنوار الزاعقة على جانب الطريق في قلب الظلام.

أعدّل من أحمر الشفاه وخصلات شعري، أخلع الجاكيت المغلق، في اللحظة نفسها التي يفتح فيها باب السيارة مدير الفرقة لائمًا إيّاي على التأخير.

- وماذا في ذلك يا حسن، هل هو زفاف الدوقة كيت؟

- من؟

- لا أحد، لننتهي من هذه الليلة.

تدخل نادية خلفي فأوصيه بأن يجلسها في أيّ مكان لتشاهد، تجلس في آخر القاعة على مائدة منزوية، أعتلي المسرح ببنطلوني الضيّق والتوب الذي يكشف نصف صدري، فيُصفّر الجميع بصوت مزعج يقتحم أذنيّ.



يتحوّل صوتي إلى صوت آخر لا أعرفه، يناولني أحدهم زجاجة بيرة فأتجرع نصفها على مرتين وألقيها جانبًا، الصفير لا يزال مشتعلًا، والعروسة جالسة تنظر إليّ من أعلى لأسفل، أمّا العريس فيبدو منشغلًا بأمور أخرى مع أصدقائه.

أنظر إلى نادية التي تنتظر غنائي متحمسة، تبدأ الموسيقى من خلفي، ودخان السجائر والحشيش يهبّان عليّ من كل اتجاه..

بحر الدموع فين أغسل منه أحزاني وأطهر الجرح ده اللي تعبني وأذاني

وأعصر همومي وأخفّف تُقل ميزاني أنا كنت فاعل خير يا صاحبي ويا الناس

وفوق كتافي بشيل همّي وهمّ الناس لقيت جِميلي ومعروفي اتنسى وانداس

حتى أعز الحبايب بالشر جازاني....

سألت ع الصبر قالوا الصبر له عجّان بيخمره في العسل ويدوبه دوبان

لَجلْ المَرار ينبلع ويريح التعبان أنا رحت أدور عليه وأسأل في كل مكان

وشربت من لف حنضل ميطيقوش الجان

ولما آن الأوان وعِترت في العنوان



رحت لقيته جبر وبيقفل الدكان

كان الجميع قد اعتلى المسرح للرقص على الموسيقى الصاخبة للأورج والمزمار، بينما تجلس نادية وحيدة تقريبًا وحدها، ساعة ونصف مستمرة من الغناء حتى أشرت للفرقة بالتوقف.

نزلت من على المسرح وجلست بجوارها لأشعل سيجارة، جاءني حسن موشوشًا في أذني ببضع كلمات..

- نادية سأغيب نصف ساعة، يستحسن أن تنتظريني في السيارة، يمكنك الاستماع إلى بعض الأغاني حتى أعود.

تومئ برأسها مطيعة، ننهض معًا ونغادر الصخب إلى الصمت والظلام بالخارج. أطمئن لجلوسها في السيارة وإغلاق الأبواب مع فتح النافذة بعض الشيء لتتمكن من التنفس.

أوصي حسن بها حتى أعود.

السيارة الأخرى تقف في انتظاري على بُعد أمتار، أسرع للركوب ربما مللًا أو تلهّفًا للانتهاء من كل هذا.

في هذه المرّة لم أستطع تخيّل الباشا مكان الزبون، كانت الرائحة قاسية للغاية، نفّاذة بشكل يقتحم روحي نفسها، الرائحة هي الحاسة الوحيدة التي لا يمكن



استبدالها أو تخيّلها، الرائحة تعيدني إلى الواقع كلما ابتعدت عنه، تجذبني إلى الأرض فأفيق.

أفتح عينيّ متسائلة عمّا أفعله، أكاد أصاب بنوبة فزع، أرتجف وأنا أنظر إلى وجه العجوز الذي يعتليني، إلى رائحة جسمه التي تشبه رائحة النفتالين والفينيك، ومذاق فمه الذي يشبه التراب.

أشعر بالاختناق وأودّ النهوض فيكبّلني أكثر بيديه.

عنقي يبدو وكأنّه قد شُلّ، صوتي أيضًا اختنق.

إنّه كابوس من كوابيس فقد القدرة على التحكّم بالجسم، نَفَسِي يكاد يتوقّف.

أغمض عينيّ وأنوي الاستسلام للموت، لكنّي أفكّر في نادية التي تنتظرني وحيدة في الظلام، يجب أن أعيدها، أشعر بالمسؤولية تجاهها.

أدعو الله أن ينتهي بأسرع وقت ممكن، أغرب دعوة يمكن توجيهها لله لكنّي أفعلها بلا ندم.

يستجيب لي فعلًا وأشعر بالحجر ينزاح عن صدري، أنهض بسرعة وأنا ألهث لأرتدي ملابسي، يلقي في وجهي بالنقود، فأسأله: ألن تعيدني إلى المكان؟

لا يردّ عليّ.



أنتعل الحذاء وأهرع خارج المنزل المتطرف في الزراعات، أحاول تقدير المسافة فلا أستطيع.

أركض في طريق القاعة وسط الظلام، أخرج هاتفي من الحقيبة وأضيء الكشّاف لأحاول تبديد بعض الظلمة، تتجمّد الدموع في عينيّ لكنّي لا أبكي، أركض أكثر في الهواء البارد فأتمكن من التنفس.

اركضي يا نهال، اركضي، المسافة ليست بعيدة، لحظات وتكونين في بيتك.

أرى ضوء السيارة من بعيد أشعلته نادية بخطأ أو بقصد لا أعرف، ربما تقرأ الأفكار فعلًا كما تقول مُنى، أضحك بصوت عالٍ، أضحك وأنا ألهث، أقفز في السيارة بلا كلام وأديرها للعودة.

ترمقني نادية بلا كلام، أنظر إليها بطرف عيني..

- ماذا تريدين أن تقولي؟ قولي أنا لا يهمني شيئًا.
- أريد أن أقول إنك جميلة جدًا وصوتك رائع.
- هل أنت حمقاء؟ من الجميلة ومن صاحبة الصوت الرائع، هل تسخرين منّي؟

ترتعش شفتاها وتبدو موشكة على البكاء، أشعر بالذنب، فأعتذر لها.



- اقتربنا على الوصول، هل لا زلت مُصرّة على البيات معي؟

- نعم.

لا يبتعد البيت كثيرًا عن الكوافير، لكنّه لا يطلّ عليه في الوقت ذاته.

نصعد إلى الطابق الرابع حيث تقع شقّتي الصغيرة، أفتح الباب فتقف نادية مبهورة أمام صفوف الكتب المتراكمة.

أتركها وأنا أخلع ملابسي أمامها وألقيها على الأرض في طريقي إلى الحمام.

أسمعها تتناول كتابًا وتفتحه، تقرأ بصوت عالٍ:

«الجنس هو العزاء الذى يلجأ إليه المرء عندما لا يحصل على الحب»

أقف مكاني لحظتين، ثم أعود إليها، أنتزع الكتاب من يدها؟ ذاكرة غانياتي الحزينات، أسألها لِمَ هذا الكتاب بالذات؟

- لا أعرف، مَددّت يدي فتناولته

أنظر إليها بدهشة، ربما بعض الخوف، أضع الكتاب في يدها مرّة أخرى، أتراجع بظهري إلى الخلف.

- يوجد طعام في الثلاجة افعلي ما تريدين.

- أشكرك.



أغلق الباب وأقف أسفل الدُّشّ، المياه الباردة تغمرني فأسند جبهتي على الحائط، أتناول الحجر الأسود الناشف.

الشيء الوحيد الذي أخذته من بيتي القديم، أحُكّ به جلد جسمي كأنّني سأمزقه، أتمنّى أن أمزّقه فعلًا حتى أكشف عروقي، حتى ينبت جلد جديد، جسم جديد نظيف، غير نجس.

أنظر للبانيو، الاختراع المذهل الذي لم أستمتع به سوى قريب، أمد أطراف أصابع قدمي إلى السدّادة فأزيحها حتى تغلق البالوعة، أتمدّد بجسدي العاري فيه.

الماء البارد جميل، يرتفع شيئًا فشيئًا، يعدني بالكثير من الهدوء والراحة.

نادية هنا، من الجميل ألاّ أكون وحدي، بالتأكيد ستحرص على ستر جسمي بأيّ شيء قبل طلب المساعدة.

لعلها تتّصل بمُنى أولًا فيرقدوني في سريري بهدوء وبلا فضائح.

المياه تغطي ذقني..

الماء رائع، إنّه الوسيلة المثالية للتطهير، كما أنّه يفصل بيني وبين الصخب، والصفير، والروائح..

المياه تغطي أنفي..



أتخيل الصمت الذي سيغمرني، الخفّة وانتهاء الهموم والتفكير والذكريات.

المياه تغمر عيني وأذني..

صمت جميل، فراغ دائم، ربما الجنّة هي الانتقال إلى بعد هادئ، لا يزعجنا فيه أحد.

المياه تنسحب من على عينيّ فجأة..

أفتحهما بسرعة لأجد نادية تجلس على حافة البانيو، تبتسم ملوّحة بالسدادة.

- يبدو أنّك نسيتِ إزالتها قبل الاستحمام.

أفتح فمي فلا أعرف كيف أردّ، تتناول يدي لتضعها فيها، تمسك كفّ يدي من الأسفل للأعلى، تضغط عليه بقوة فأشعر بالرغبة في البكاء، أبكي فعلًا فتربت على يدي أكثر، كان البكاء مريحًا كغمر رأسي تحت المياه، أشعر بصفاء داخلي يغمرني، للمرة الأولى منذ سنين أشعر أنني نظيفة، أنني متشبثة بحياتي، وأنني خائفة من الموت ولا أشتهيه كما كنت أعتقد.

تربت نادية على يدي أكثر فأشعر بالتحسن.

أبتسم لها ممتنّة، فتبدو وكأنّها أتمّت مهمتها، لكنّها تبدو وكأنّها أكبر عمرًا، عيناها حزينتان وكأنّها شهدت خبرة مروّعة، تنهض واقفة أمامي وتحاول اغتصاب ابتسامة.



- صوتك رائع تحبّي أن أقلّدك؟

أومئ برأسي بنعم.

تعدل من بلوزتها قليلًا لتكشف جزءًا من صدرها الضئيل، تحاول نكش شعرها الناعم، وتشنّج وجهها ليبدو حادًا مثلي، تُخرج صوتها خشنًا متحشرجًا.

سألت ع الصبر قالوا الصبر له عجان، بيخمره في العسل ويدوبه دوبان...

لجل المرار ينبلع ويريح التعبان، أنا رحت أدوّر عليه واسأل في كل مكان...

وشربت من لفّ حنضل ميطيقوش الجان...

ولما آن الأوان وعترت في العنوان...

رحت لقيته جبر وبيقفل الدكان...

أضحك بصوت عالٍ حتى أسعل، لكن لا يفوتني ألاّ ألاحظ هذه المسحة من الحزن في صوتها.

هذه المسحة من الحزن التي كانت في صوتي أنا، والتي لسبب ما، انتقلت منّي إليها.





لا أحد

أعرف أسماء الجميع، ولا أحد يعرف اسمي.

أجلس في مكاني المعتاد على الكاشير بجوار المدخل الزجاجي الضخم، مكان استراتيجي يجعلني أتابع ما يحدث خارج وداخل الكوافير.

يمرّ عليّ الجميع دون التفات، يقفن أمامي دقيقتين يملين عليّ أسماءهن، وطلباتهن، أسجلّها بدقة على الكمبيوتر، أناولهنّ ورقة تحوي طلباتهن وأسماء العاملين الذين سيتولوهُنّ، يلقين كلمات شكر مبهمة: «شكرًا يا قمر»، «ميرسي يا جميل»، أو يسألن عن شخص بعينه: «هل فلان متاح لصبغ الشعر يا حبيبتي؟».

أنا القمر، الجميل، حبيبتي، الفتاة التي لا تملك اسمًا، أو تملك واحدًا لا يملك أهمية المعرفة أو الحفظ.

يختلف وجهي باختلاف الشهور، كل بضعة أشهر تأتي فتاة وتذهب لهذا المنصب، أنا نفسي هنا منذ 6 أشهر، هذه أطول مدّة لفتاة كاشير، لولا الحاجة لتركت العمل أيضًا.

لذا يأتي مظروف راتبي بلا اسم، ظرف أبيض كُتِبَ على جانبه «كاشير»؛ حتى الباشا الذي يعلم كل كبيرة وصغيرة لا يهتمّ بمعرفة اسم الفتاة الذي يأتمنها على أمواله، «فتاة الكاشير» لا تسرق، هي ليست مُهِمّة حتى لدرجة ارتكاب فعل السرقة.

أنا بلا وجه، أو بوجه مألوف ومتكرّر لدرجة الملل.

تراني في كل مكان وكل شارع في هذه المدينة، بشرتي بلون مبهم ليس بالأبيض ولا الأسمر.

عينان داكنتان، وطرحة ملتفّة تبرز خصلتي شعر مصبوغتين ببقايا لون كان في طبق ما بجواري بعد انتهاء أحد العاملين من الصبغ.

أرتدي «توب» ضيّقًا ذا كُمّين مُتّسخين، وفوقهما بلوزة قصيرة، وجيب جينز طويل.



أنا ومثلي الآلاف، يسرن في الشارع كل يوم للذهاب إلى العمل أو الجامعة أو السوق، لا ميزة لي ولا عيب، لا شيء يمنحني طابعًا خاصًا.

لا يلاحظني أحد.. لا يعرفني أحد.

أجلس في مكاني 10 ساعات كل يوم، لا أنهض من خلف الكاشير إلا للحمام أحيانًا.

لا يشاركني أحد وجبة الغذاء ولا شُرب الشايّ.

البنات في الطابق الأعلى لا يُعِدّونني منهن، والأولاد بالأسفل لا يحدّثوني سوى طلبٍ لبعض الفكّة، أو سؤالٍ عن سعر منتج ما يبيعونه للزبونة حتى تزداد نسبة أرباحهم.

أتابع العرائس ينزلن الدرج بفساتينهنّ البيضاء، يتأبّطن عريس الأحلام الذي يتصبّب عرقًا وجيلًا أغرق به شعره.

يحاول أن يبدو مهذّبًا فيحمل لعروسه ذيل الفستان ويساعدها على عبور المرتفعات والمنخفضات في الطريق للسيارة المزيّنة بالورود التي تنتظرهما في الخارج.

أنظر في وجه العروس، لا تبدو مختلفة عنّي سوى بطبقات المكياج الثقيلة التي



وضعتها جيجي طبقة فوق الأخرى، لكنّها نجحت في أن تبدو ظاهرة لرجل واحد على الأقل، رجل واحد أرادها هي بالذات لتشاركه حياته.

أفيق على صوت زبونة تطالب بسرعة تدوين طلباتها حتى تنتهي سريعًا.

أرفع عيني لأجدني كما أنا، جالسة على الكاشير المرتفع، لا أحد يراني، أو يعلم بوجودي.

ينتهي يومي كما بدأ بلا شيء يذكر، فألملم حقيبتي، وأدسّ ما تبقّى من ساندوتش الجبن المقلي من المحل المجاور فيها لأعود إلى البيت.

لا أحد ينتظرني سوى أمي، ربما تنساني أحيانًا لولا ما أحمله لها معي من نقود.

تسألني تعشيت؟ فأجيب بنعم.

تدخل هي إلى غرفتها الضيّقة التي تشاركها فيها أختي الصغرى.

أخي يحتل الغرفة الثانية، بينما أنام أنا على السرير في الصالة.

أخرج إلى الشرفة الضيّقة في الدور الأول، أضع مقعدًا صغيرًا أمام بعض أصص النباتات التي أشتريها أحيانًا من الفتاة التي تقف أمام مكتب البوسطة في طريقي للمنزل، أهتم بها حينًا ثم أنساها فتذبل، ألقي بها في القمامة ثم أشتري من جديد.



أرشّ البتونيا ببعض قطرات الماء، رغم أنّها تكره الماء مثلي، تنتعش في البرد، وتذبل في الصيف.

كنّا في أواخر الشتاء، وكانت زهراتها باللونين الأحمر والأبيض مثل المهرج تقترب من الذبول.

ألمسها علّها تنتعش، فتذوي أكثر، أستسلم أمام إصرارها على الذبول، وأنتقل إلى الريحان، أرشه بالماء فيمنحني عطره النبيل، أتنفسه بعمق.

أخرج من حقيبتي بقايا الساندوتش وأجلس في الشرفة من جديد، الوحدة غريبة، تمنحك شعورًا بأنّك مراقب.

أعتدل في جلستي وكأنّ هناك من يتابعني، أتخيّل معجبين سرّيين يلتقطون لي الصور، أغرق في أحلامي.

تمرّ ساعة واثنتان وأنا في عالم آخر، أفيق على صوت صراخ إحدى الجارات في زوجها العائد فجرًا.

أدخل من جديد إلى الصالة الصغيرة، أدير فيها عينيَّ بتعجب، لكنّي أندسّ في فراشي وأستغرق في النوم.

في الصباح، يأتيني صوت أميّ من بعيد لتوقظني، أنهض بسرعة لأرتدي ملابسي.



أوشك على وضع الطرحة على رأسي، ثم أتوقّف لحظة، ما الذي سيحدث لو لو أفعل؟ هل سيلاحظ أحد؟ هل يمكن أن يسألني من في الكوافير لماذا خلعت الإيشارب؟

أنزعه بغلٍّ وألفّه حول عنقي تحسبًا. أغادر المنزل فلا توقفني أمي ولا تسأل عن تغيير.

يمر بي أخي في طريقه للحمام فلا يلتفت، أسير في الشارع فلا يلاحظني أحد.

في الأفلام تتغيّر حياة البطلة عندما تُغيّر من شكلها، «نيولوك» ينقلها من الفتاة القبيحة أضحوكة المدرسة إلى جميلة الجميلات.

أدخل من باب الكوافير، أستعدّ لإبداء الخجل إن سألني أحدهم أين الحجاب، لكنّ لا أحد يسأل.

صباح الخير يا قمر..

تلقيها إحدى البنات وهي تقفز السلم المواجه صعودًا إلى الطابق الأعلى، بينما أجلس أنا مكاني بلا حراك، تتوافد العميلات، ويمتلئ المكان شيئًا فشيئًا.

أنهض من مكاني للذهاب إلى الحمام، أصعد إلى الدور العلوي دون سؤال.

هذه ميزة كوني شبحًا لا أحد يسأله إلى أين تذهب.



أقف أمام الأوفيس الصغير بالأعلى وأطلب كوبًا من الشاي، يُعِدّه لي الصبي دون أن ينظر.

أتناوله وأقف قليلًا أمام مكتب الباشا، يتحدّث في الهاتف بعصبيّة واضحة.

لا أستبين ما يقول لكنّ صوته يصل إليّ، أشعر بالفضول فأظلّ واقفة، حتى تمرّ جيجي في طريقها لمكتبه.

أحني رأسي إلى الأرض وأتظاهر بشرب الشاي، لكنّها لا تنظر إلي من الأصل.

يراها فيلقي بالهاتف في ركن الغرفة، تجلس أمامه في محاولة للتهدئة، فأدخل أنا إلى غرفة الفتيات المجاورة أسأل واحدة أن تشذب لي حاجبيّ.

- اجلسي يا جميل..

أجلس أمامها لتنزع لي الشعيرات بسرعة، أنظر في المرآة إلى شعري الطويل، أسألها هل يمكنّك قصّه؟ لكنّها لا تردّ.

تأتي نادية من خلفي، تظهر من العدم كعادتها، تتناول مقصًّا من الدرج أمامي وتقول أنا سأقصّه لكِ.

أشعر بالخوف، هل أنت قادرة على ذلك؟ تجيب بهزّة رأس واثقة.



ترش شعري بالماء من مرشٍّ خاصٍ، وتمسك به خصلة خصلة، أرى الخصلات تسقط على الأرض دون أن أستطيع النطق.

شعري يتناقص بسرعة بالغة، فأصرخ فيها أن تتوقف، لكنّها لا تفعل.

أرى شعري قصيرًا قصيرًا مثل الصبيان، أنهض من مكاني وأصرخ ما الذي فعلتِه؟

- تريدين تمييزًا؟

أنظر في وجهها دون أن أفهم، أمرّر أصابعي بين خصلات شعري، تتوقف جيلان بجانبي، جميل جدًا، مَنْ قصّه لك؟ تسألني.

أنظر إليها بدهشة، فعلًا جميل؟

- جدًا، أنت الفتاة على الكاشير أليس كذلك؟

أهزّ رأسي ببطء وأغادر المكان، أعود إلى مقعدي بهدوء.

ينظر إلي الجميع، يثنون على شعري، حتى إنّ أحدهم يقول اسمي للمرة الأولى.

- من قصّته لك؟

- نادية.



- نادية من؟ العرجاء؟

أجد نفسي أجيب بنعم مع لسعة ذنب، تنظر إليّ نادية من الأعلى، تتابعني في صمت، يمنحني شعري القصير جرأة لا أعرف من أين.

أدير عيني في الوجوه.

أبتسم لهذا وأحادث ذاك، يقترب أحدهم مني، يسألني إن كنت أريد طلب بعض الطعام معهم فأجيب بنعم.

هذه أوّل مرة أشارك فيها طعامي مع أحدهم.

الآن أفهم لماذا تأتي كل هذه النساء إلى الكوافير، إنّها المهّمة الأكثر ربحًا حتمًا.

كُلّهنّ يردن تمييزًا، التميّز يمنحهنّ القوة، يجعلهن قادرات على تحقيق ما يردنه.

الشعر والمكياج والمانيكير والباديكير ليست بالأمور التافهة كما يقول الرجال، إنّها أساسيات حياة المرأة، إنّها الألم الذي يتحمّلنه في سبيل الحصول على مبتغاهنّ، نزع الشعر شعرة شعرة من أجسامهن ووجوههنّ.

الاستسلام بالساعات لمصفّف الشعر، كتم البشرة بمستحضرات ثقيلة تخنقهنّ، هذه ضريبة القوة، هذه ضريبة طلب الاهتمام.

أنظر إلى كل ما حولي بشكل مختلف، أبدو واضحة شيئًا فشيئًا، وكأنّ مَنْ حولي



ارتدين النظارات فجأة ليرونني. تحدّثني الفتيات بمحبّة، يسألنني من قصّ شعرك؟ أنظر إلى نادية التي تسير بين الجميع وكأنّها كيان وهمي دون توقّف، وأتساءل لِمَ فعلتِ ما فعلته؟

أسير بخطوات بطيئة إلى المنزل، أستمتع بالمعاكسات حتى السخيفة منها، يتفنّن المصريون في معاكساتهم التي تحوي إهانات فظة، يعتقدون أنّها تسعد البنات بشكل أو بآخر، ربما تكون فظاظتهم هي طريقتهم للفت الانتباه، طريقتهم الغبيّة، نعم، لكنّها فعّالة.

أقف أمام مرآتي، أشعر ببعض الانتعاش الذي تشاركني فيه زهرات البتونيا، تبدو اليوم أفضل حالًا، أو أنّني سعيدة لهذه الدرجة.

أجلس أمامها أرشّها بالماء، فتتفتح بتلاتها قليلًا.

أزيل الأوراق الذابلة والفروع المتكسرة، فتبدو أجمل.

تسألني أميّ ما الذي فعلتِه بشعرك؟

- قصيته، أليس أجمل؟

• بالتأكيد لا، هل استأذنتِني؟

يتهته أخي ببضع كلمات، يسألني لِمَ خلعت الحجاب؟



- هذا ليس من شأنك

- • شأن مَنْ إذن؟

أتعجّب من اهتمامهما المفاجئ، كنتما لا تلاحظاني من قبل فما الذي حدث؟

يهبّ أخي لتعنيفي، لكنّ أمي توقفه.

أنتِ حرة، تنهي كلامها، لكنّك ستندمين.

على ماذا أندم؟ على التألّق؟ على الاهتمام؟ ربما ينتهي بي الأمر عروسًا أرتدي الأبيض وأخرج من باب الكوافير.

أنظر لفتاة الكاشير الجديدة الجالسة في سكون بشماتة، تتبدل الأدوار وأتوقّف عن كوني لا أحد ولو لفترة كافية أن أصير زوجة أحد، أو أمّ أحد.

أحلامي البسيطة هذه تكفيني لأسعد.

أسمع الفتيات كل يوم وهن يرددن، الزواج ليس كل شيء، أتابع منشورات النساء القويات على الفيسبوك، مستقلات، نشطات، عاملات، لكنّي لا أفهمهن.

هؤلاء بكل بساطة، نسوة يملكن بيوتهن الخاصة، ملابسهن الأنيقة، مصدر دخل ثابت، فلا حاجة لهنّ بالرجل ولا الزواج.



ربما تعيش كل منها حياتها مع صديق أو عشيق، أمّا أنا، فماذا عليّ أن أفعل؟

أنام على سرير متهالك في صالة ضيّقة باردة في الشتاء وخانقة في الحر، لا أعرف أحدًا ولا يعرفني أحد، أتمنّى سماع كلمة لطيفة ولو «شكرًا»، فلا أسمع.

أحدّق في سقف الغرفة بالساعات، الوحدة مقيتة، مؤلمة.

الرجل فقط هو القادر على منحي بعض الدفء، بيت صغير أؤسّسه بنفسي، أختار كل كبيرة وصغيرة، أرصّ المجات بترتيب معين، أضع أواني الزهر وأعلق اللوحات، أخصّص الشرفة الواسعة لزهوري التي لن تذبل هناك؛ لأنّني سأعتني بها جيدًا كل يوم، أرشها بمرش ملون كبير، أجلس على أرجوحة صغيرة اشتريتها أنا وزوجي كهديّة مرور شهرين على لقائنا.

أتأمل الزهرات التي تكبر براحتها، أشعر ببعض الطمأنينة، وقتها فقط أصبح أحدًا.

الأحلام جميلة أمّا الواقع فدائمًا ما يكون على النقيض تمامًا، كانت الأخبار في التلفزيون وعلى الإنترنت تتحدث منذ الصباح عن مدينتنا الصغيرة التي لا يأتي ذكرها قط، انفجار كبير يهز أرجاءها بشكل لم نعهده مسبقًا، ينقلب العالم فجأة، يحولها الانفجار إلى أشهر مدينة في العالم، أقرأ اسمها على صفحات مشاهير وكبار، أشخاص يمثلون كل ما أحلم به من وجود، يذكرون مدينتي



وكأنهم يمشون في شوارعها كل يوم، لكي نصير «شيئًا» لكي نصبح «أحدًا» يلزمنا فعل صادم كانفجار يأتي من اللا مكان.

لكنني لم أكن أدرك فداحة الموقف بالخارج بعد، أعيش في حي بعيد وسكن يبدو منفصلًا عن بقيّة المدينة، تنصحني أمي بعدم مغادرة المنزل اليوم فأرفض تمامًا.

أسير في الشارع في طريقي للشفت المسائي بثقة مضطربة، أرتدي بنطلون جينز قصيرًا إلى الكاحلين، مع خلخال لامع وحذاء رياضي، تيشيرت بنصف كُم اختارته معي جيلان، أكاد أصبح نسخة منها، لكن بلا حجاب قصير إلى الوراء كما تعقده.

أشعر أنّني شخصًا حتى ولو كان نسخة، على الأقل نسخة من عدد محدود وليس شائعًا في كل مكان.

تزداد حدّة المعاكسات فأشعر بالقلق، أحاول السير بشكل أسرع، يلطشني صبّي صغير على مؤخّرتي فأنتفض، أشعر بالرعب بينما يضحك هو بتشفّ، أشير لسيارة قادمة من بعيد، تتوقف فأركب فورًا.

سيارات الملاكي الصغيرة التي يعمل أصحابها عليها طلبًا لدخل إضافي، أملي السائق عنوان الكوافير وأتشبّث بحقيبتي.



العالم مرعب، الأكثر إرعابًا هي نظرات السائق الغريبة لي في مرآة السيارة.

يدخل من شوارع ضيّقة ومظلمة، يتعلل بازحام الشوارع الرئيسة بسبب الانفجار الكبير الذي حدث هذا الصباح، فأتشبّث بحقيبتي أكثر، أكتم أنفاسي خوفًا من أن يرش لي مخدرًا والزجاج مغلق، أتذكّر كل القصص التي قرأتها، أكتم نفسي أكثر فيحتقن وجهي، أفكر كيف سأتمكّن من القفز من السيارة وهي سائرة؟ أتحسّس الباب فأجده بلا مقبض من الداخل، أشهق فينظر إلي مجدّدًا.

- آسفة يجب أن أنزل هنا.

- لماذا؟ لم نصل بعد؟

- نسيت محفظتي في المنزل أريد النزول.

يقف على جنب، تمر دقيقتان كدت أموت فيهما، يترجل هو من سيارته ليفتح لي الباب من الخارج، أدفعه به بقوة وأنزل من السيارة، جسمي كله يرتعش، أسير بخطوات أقرب للركض في الشوارع المظلمة، البيت قريب لكني أشعر بالتوهان، أشعر ببعض الدوخة، فهل رش لي مخدرًا بالفعل؟

أكاد أبكي من الرعب، صوت أيّة خطوة من خلفي يجعلني أقشعرّ، أركض أسرع فأتعثّر بالرصيف المتكسّر، أسقط على ركبتي، لا أبالي، أنهض من مكاني وأكمل الركض.



يظهر البيت من بعيد وسط الظلام فأشعر وكأنّه مرفأ الأمان، آخذ السلالم درجتين درجتين، وكأنّ هناك مَنْ يركض خلفي.

أضرب بقبضتي يدي على الباب فتفتح لي أختي مفزوعة.

أدخل إلى البيت بسرعة، ألقي بنفسي على الكرسي الخشبي المجاور للباب، تهرول أميّ نحوي، تنظر إلى ملابسي المتّسخة والقطع على ركبتي.

- ما الذي حدث؟

- • لا شيء تعثّرت وأنا في طريقي.

- لماذا رجعت؟

لا أعرف بما أرد، أخبرها بأنّي خائفة، خائفة من العالم، أشعر بأنّني هشّة وضعيفة بعدما كنت أشعر بأنّني لا أحد.

- خفت، كانت الشوارع مظلمة، والمعاكسات..

- • معاكسات؟ تمسك بي أميّ من كتفي وتهزني بقوة..

- هل فعل بكِ أحدهم شيئًا؟

- • أنظر إلى عينيها اللتين يبدو فيهما الذعر واضحًا، كان خوفًا من المجتمع وليس خوفًا عليّ، أظل صامتة فتهزني أكثر..



- انطقي، هل مسك أحدهم؟

- لا، أبدًا، أنا خفت من الظلام، لم أتعوّد على السير في الظلام.

أنزع يديها من على كتفيّ بغيظ، أدخل إلى غرفتها لأخرج عبايتي السوداء الطويلة، أعيد ربط الإيشارب على رأسي، أحتمي بهما عن الجميع، عن أمي، ونظرات الآخرين، تحرشاتهم وابتساماتهم اللزجة.

أحتمي بهما عن رائحة مخدّر يرش عليّ ولو كان خيالًا، عن ظلام دامس أسير به في الشارع، عن سيارات بلا مقابض، وأفكار يتجمدّ لها عمودي الفقري.

أخرج من الغرفة فتنظر إلي أمي بلا تعليق..

- هكذا أفضل، أقول..

لا تردّ عليّ، تنهض لتدخل إلى غرفتها من جديد، أنا أنا، فأنزل السلالم ببطء.

كان الظلام لا يزال معتمًا، لكنّي كنت جزءًا منه، أشير لـ «توك توك» صغير ينقلني إلى الشارع الرئيس بلا خوف.

لا ينظر إلي الصبي حتى، أناوله بعض الجنيهات وأكمل السير على قدميّ، لا أحد، أعود كما كنت لا أحد، أجلس على مقعدي لا أحد، لا يسألني أحد عن التغيير المعاكس، ربما اعتقدوني فتاة كاشير جديدة مختلفة، أظل ثابتة مكاني،



أجيب عن أسئلة العميلات، أدوّن أسماءهن، أمنحهن ملفاتهنّ التي كُتبت فيها طلباتهنّ ومن سيتولاهنّ من العاملين.

شكرًا يا جميلة، ميرسي يا قمر، هل باسم موجود يا حبيبتي؟

أتأمل الناس من حولي ولا يراني أحد، أشعر بأنّ وجودي وموتي سواء، أحلم بالتجمّد مكاني، أتأمل «الكاتر» الحاد أمامي وأفكر، ماذا سيحدث لو مرّرته على معصمي الآن، هنا، وسط كل هذا الحشد، هل سينتبه لي أحد؟ هل سيشعر بي أحد؟

تقف نادية أمامي وكأنّها ظهرت من اللا مكان كعادتها، تبتسم لي، فلا أقوى حتى على ردّ الابتسامة.

تلفّ نادية لتجلس بجواري خلف الكاشير، تناولني قطعة بسكويت فآخذها بحركة آلية.

- أنت تعنين لي الكثير..

• ماذا؟

أنتِ أحد بالنسبة لي، إنسان، امرأة جميلة بشعرك، بالإيشارب بأي شيء.

أنظر إليها بلا فهم، متى حدّثتك عن كل هذه الأشياء؟ تتناول يدي بين يديها،



تضغط عليها بقوة، أحاول نزعها فتتشبّث بها أكثر، أتوقف عن المحاولة، أستسلم لها تمامًا، أشعر وكأنها تمدني بالثقة، لا أبالي إن عرفني أحد أو لا، يكفيني أنني أعرف نفسي، أنا مهمة أمام نفسي وكفى.

أضحك من فكرة أنني كنت أرغب في قتل نفسي من أجل غرباء لا أراهم سوى لبضعة ساعات في اليوم، يمكنني في أيّ وقت تركهم والرحيل، لا أحد باق، الجميع يرحل، لكنني باقية لنفسي فقط.

أنظر إليها وأنا أبتسم، أريد أن أحكي لها ما اكتشفته للتوّ، لكنها تبدو وكأنّها مرهقة، تزداد التجاعيد حول فمها وعينيها، تعيد خصلتي شعر خلف أذنيها وتنهض من جواري، تبتعد نادية بخطواتها المتثاقلة.

وفي اليوم التالي أعلم بأنّها ذهبت إلى الأبد.



جيلان

يطلبونني بالاسم، جيلان وفتلتها الأشهر في هذا البلد.

أقف مستندة إلى الحائط في غرفة البنات في الدور العلوي، أنتظر الزبونات الخصوصيات، لكيّ أشذب حواجبهن، من أجلي يجب عليهنّ دفع الضعف، غير إكراميتي.

ألوك علكتي بصمت، وأنتظر، تناديني ريهام التي تتولّى تنظيم العمل لهذا اليوم، فأتّجه إلى الزبونة الجديدة.

أضع بعض العطر على يدي، وأخرج فتلتي الخاصة من درجي، أرتدي النظارة الطبية وأقترب من وجهها، وأبدأ عملي بصبر.

تتابعني الفتيات للتعلم، يقفن جواري يشاهدن كيف أنزع الشعيرات بالفتلة



فقط دون استخدام الملقط ولا المقص، أحف الشعر الخفيف على جانبي الوجه وفوق الشفتين، لا أجرح بشرة، ولو كانت برقة الورقة، تمنحني الزبونة بقشيشًا سخيًّا، سريعة، شاطرة وخفيفة اليد.

أنزع نظارتي الطبيّة، لتختفي الموجودات من أمامي، وأعود إلى مكاني من جديد.

إن رأيتني اليوم لن تتعرّف عليّ في الماضي، أرتدي الجينز الضيّق القصير، الذي يظهر خلخالي الذهبي حول الكاحل، وحذاء رياضي ملوّن وبلوزات قصيرة ضيّقة على الصدر. ألف الطرحة للخلف خارج الكوافير، أمّا داخله، فأترك شعري في ذيل حصان طويل.

وفرت راتب 3 أشهر لأتمكّن من علاجه بالبروتين في كوافير آخر حتى لا يعرف أحد حالته الأصلية.

أمارس لعبتي المفضّلة، أخلع النظارة فيختفي الجميع من أمامي، أرتديها فلا أرى سوى منابت الشعر في وجوه السيدات، أنفصل عن العالم، وأبتعد عنه بإرادتي، أنبذ نفسي بعدما نبذني الجميع.

فتاة بائسة، بلا تجارب عاطفية، ولا كلمة إعجاب تدغدغ أذني سوى في أحلام يقظتي.



أعيش في واقع موازٍ طيلة الوقت، فيه أنا أميرة الأميرات، أرتدي فساتين صيفية قصيرة ملوّنة، أسير في الشارع فأدوّخ الجميع، تحيط بي النظرات كما تحيط بنهال التي تدلف من باب الكوافير كل أسبوع ليتأمّلها الجميع.

عاهرة، نجمة، وفتاة ملتزمة لم يمسّها بشر، هي مجرد فتاة مسكينة لا تشتهر سوى بفتلتها.

يأتيني الباشا في أحلام يقظتي فارسًا على صهوة جواد، يخطفني من واقعي البائس ويحملني إلى عالم آخر، تنظر إلي النساء بحسدٍ، هذه هي السندريلا التي خطفت قلب الباشا إذن؟ في عالمي أنا زوجته يومًا، نتناقش حول مصاريف الأولاد وطلبات البيت، وعشيقته يومًا، أتقلّب معه على سرير مشتعل في غرفة حمراء، نهرب من العالم ونداري علاقتنا عن الجميع.

أنا غارقة في أحلام يقظتي منذ الطفولة، منذ كنت أجلس في الصف الأخير في الفصل، نظارتي السميكة الملحومة، ذراعاها على وجهي المترب، شعري ثائر لأنّ أمي لا تملك الوقت الكافي لتسريحه لي قبل الذهاب إلى المدرسة.

أنهض بنفسي، أرتدي ملابسي، أمر عليها وهي تجلس أسفل البيت، تفرد فرشتها مع بداية السوق، تبيع أمي الشباشب في السوق أسفل بيتنا، تجلس



بخمارها الأزرق ووجهها المتعب، تدعو الله أن تبيع زوجًا أو اثنين لتتمكّن من إطعامي اليوم.

أطلب منها على استحياء 75 قرشًا لأشتري قلمًا سنونًا ملوّنًا مثل الذي تملكه بقيّة الفتيات في الفصل.

- وما الذي حدث لقلمك، هل بريتيه حتى انتهى؟

• تحمرّ وجنتايّ، لا، لكنّي أريد «قلم سنون»، ربما يتحسّن خطّي.

تتنهد أمّي وتخرج كيسها المربوط إلى صدرها من أسفل الخمار.

تعدّ عشرة قروش بخمس حتى تجمعها، وتقول: لا تطلبي منّي أيّ شيء آخر هذا الشهر.

أجري إلى المكتبة، أشتري القلم الملون الجميل، بسنونه ذات الرؤوس البيضاء، التي كلما انتهى أحدها أخرجها وأدسّها في مؤخرته ليظهر السن الذي يليه.

أبتسم بفخر، وأحمله في يدي وكأنّه إعلان عن قدرتي على مواكبة الجميع.

لا أعرف لي أبًا ولا أخًا، أنا وحيدة مع أمّي منذ الصغر، المدرسة في نهاية الشارع الذي أعيش فيه، السوق الأكبر في المدينة، نسمع صياح البائعين طيلة الوقت، فلا أنتبه للدرس.



أخاف أن يسمعوا صوت أمّي لكنّهم ليسوا في حاجة لذلك.

ابنة بائعة الشباشب..

هذا اسمي منذ الصغر، أجلس وحيدة في الديسك العريض؛ لأنّ لا أحد يقبل بالجلوس بجوار ابنة بائعة الشباشب، وحيدة منذ الصغر، لا أحد يقبل الحديث معي، رغم أنّهم لا يختلفون عنّي كثيرًا.

كلنا جيران في شارع السوق، لكنّ أمّي وحدها من تبيع الشباشب فيه.

أطلب من الفتاة الجالسة أمامي ممحاة فترفض.

تمر عليّ المُدرّسة، تُمسِكُ بكراستي وتقطّع ورقة الدرس.

- خطك سيئ، اعيدي كتابة الدرس من جديد.

تضحك عليّ الفتيات، يسقط منّي القلم السنون الجديد على الأرض، تتناثر السنون التي أدفعها من الخلف كلما انتهت ليخرج لي سن جديد.

أحاول جمعها بيدي، والوقت قد قارب على الانتهاء، أدسّ السنّ واحدًا خلف الآخر، يتبقّى مكان فارغ لا يظهر السن بدونه.

أنزل أسفل الدكّة، أبحث عنه، أرفع قدم الفتاة أمامي فتصرخ مشمئزّة: ابتعدي عنّي.



تدوس على السنّ فتكسره، يتلف قلمي قبل أن أسعد به، أبكي بشدّة، ولا أحد يراني.

يرنّ الجرس فيخرجون، وأبقى أنا جالسة وحيدة أحاول إصلاح قلم انتهى قبل أن يبدأ.

أخرج من البوابة وسط عاصفة من رمال الحوش.

يتوقف الأطفال لشراء بعض الحلوى أو «الاستيكرزات» الجديدة من بائعها الواقف دائمًا هناك، أمّا أنا فأسير حتى فرشة أمّي للجلوس بجوارها.

تمرّ عليّ الفتيات يشرن إليّ ويضحكن، أتجاهلهن، وأقلّب في الشباشب أمامي.

أنزع نظّارتي الطبيّة السميكة، ألقيها أرضًا فلا أرى، أتوقّف عن رؤية ضحكات الفتيات، والسوق المزدحم، وأمّي بخمارها الأزرق، وملابسي المتّسخة وشعري الأشعث.

أغرق في عالم آخر تتحوّل فيه أمّي إلى ملكة، وشباشبها إلى أحذية تملأ الخزانات، ألفّ بينها وأجرّبها خارج القصر، تقف الفتيات يتأمّلن جمالي، وفستاني، يرسلن لي الهدايا من أجل أن أصير صديقتهنّ، كل الأقلام الملوّنة الجميلة ذات السنون، والمماحي المعطرة برائحة الفواكه، والمساطر الزجاجية التي تسبح فيها



السمكات الصغيرة والنجوم اللامعة، والمقالم التي تعمل بالأزرار، والحقائب التي تحمل ساعة بعقارب ملوّنة على ظهرها، وكل «استيكرزات» العالم.

لا تزال أمّي تجلس طيلة النهار على فرشتها، لكنّي تعلّمت ألاّ أخجل من ذلك، مثلما تعلّمت أن أهتم بشعري، وألّفه بطرحة ملوّنة إلى الخلف فأداري خشونته.

أحدّد عينيّ بالكحل الخفيف، وأرتدي ملابس المدرسة الأصغر قياسين، أفتح أزرار القميص العلوية، وأضع الكرافت على جانبين صدري وكأنّني أحدّده.

أتعلّم كل شيء وحدي، أتابع البائعات في مدخل البيت يفتلن وجوه بعضهنّ بعضًا، فأطلب منهنّ تعليمي، أمسك الفتلة لأوّل مرّة.

تعلّمني كيف أعقدها مرتين حول أصابعي، أضع الطرف الآخر في فمي، وأشدّ، وأمرّر الخيط الحاد بسرعة أسفل الجذر عكس الاتجاه فتخرج بسهولة، تصبح الفتلة لعبتي الأثيرة، أجرّب على يدي وساقي ووجه أمي، حتى أتمكّن من تشذيب حاجبي بنفسي أمام مرآة.

أزداد دقّة كل يوم، تأتيني البائعات في البيت لأشذب حواجبهنّ، أتميّز بقدرتي على رسم الحواجب كالفنّانين، يمنحنني الهدايا من الفواكه والخضار، ربما قطعة



ملابس أو بيجاما، أجرّب تطوير مهارتي ونقلها إلى المدرسة، فأتحوّل من جيلان المنبوذة، إلى نجمة المرحلة الإعدادية.

تأتيني الفتيات الفائرات المتنبهات لأنوثتهنّ أخيرًا في الفسحة، يضعن في يدي خمسة جنيهات ويشرن لحواجبهن، نغلق علينا باب الحمام، أجلسهنّ على القاعدة وأخرج الفتلة، عشر دقائق لكل واحدة وننتهي.

لكنّ الأمور ليست بهذه البساطة، كان يجب أن أتعلّم أنّ الحياة قاسية وصعبة، ربما كان لازمًا أن أتعلّمها بهذا الشكل.

في عمر الرابعة عشرة، ما بين الطفولة والأنوثة كنت لا أزال أخطو، ربما وضعت بعض الكحل دون أن تعلم أمي، ربما وفّرت ثمن زبدة كاكاو حمراء ابتاعها من المحل المجاور لأصبغ بها شفتي، ربما كنت أجيد الفتلة بالفعل، لكنّي إلى اليوم لا أعرف إن كان هذا هو الذنب الأساسي، أم أنّ هناك شيئًا آخر لم أعرفه.

تضبطنا المدرّسة في الحمّام، لا نفعل شيئًا سوى تبادل خدماتي ببعض النقود التي تتيح لي التحرّر من كيس أمّي الضئيل المربوط دومًا إلى صدرها، لكنّها ترى هذا كافيًا لكوني «مش متربية».

- فاجرة، هذا هو المتوقّع منك..

تشدّني المُدرّسة من ذراعي عبر الحوش الضيّق إلى خارج البوابة.



الجميع ينظر إليّ، الفتيات يطللن من الفصول عبر الأسوار الحجرية العالية، يتابعن فضيحة الفاجرة «بتاعة الفتلة»، كما سيطلقون عليّ لفترة طويلة، ربما إلى اليوم.

أدخل الغرفة الصغيرة الملحقة بقسم النساء في الطابق العلوي من الكوافير، أقف في الشباك الذي يطلّ على العمارة المجاورة، تمتدّ أمامي شرفة كبيرة تقف فيها فتاة بالبيجاما تسقي زرعها.

أحلم بأن نتبادل الأماكن. أقف أنا هناك وسط الأصص المملوءة بالورود الملوّنة وتقف هي مكاني في شبّاك مغلق بقضبان حديدية وكأنّنا سنهرب.

أشعل سيجارة منحتها لي مُنى في لحظة صفا، وأعيد تذكّر هذا اليوم.

تلقي بي المُدرسة عند ساقيّ أمي، أقع فوق الشباشب الملقاة بعشوائية بعدما قلّبها المشترون عشرات المرّات منذ الصباح، تقول: رفد أسبوع، حتى تتربّى، تلطم أمّي وجنتيها وتصرخ فيّ: ماذا هببت؟

تشدّني من يدي إلى البيت، أمّي بوجهها المتعب الحزين كما هو، دون أن تتغيّر نظرتها ولا انفعالها لحظة، تضربني بكلتا يديها، اللعاب فقط يتناثر من فمها، فلا أملك إلا الإشفاق عليها، أحاول مدارة وجهي بيدي، بينما تصعد النسوة البائعات من السوق، يصدّنها عنّي.



- روقي بالك يا أم جيلان، الفتاة صغيرة وطائشة.

• ربما علينا تأديبها إذن..

لا تعرف أمّي ماذا فعلت بالضبط، أحاول أن أشرح لها أنّني لم أفعل سوى تشذيب حواجب الفتيات وقبض الثمن، لكنّها لا تسمعني، ربما اعتقدتني أهرب من المدرسة لأتجوّل مع الصبيان، أو ربما اعتقدتني تورّطت في علاقة مع مدّرس كما كنّا نسمع حكايات مثيرة تلوكها النسوة في السوق على من لا تعجبهنّ.

ثلاثة أيام في الفراش لم أبرحه، أنتظر انتهاء مدة تأديبي لأتمكّن من العودة، أضع سيناريوهات كثيرة لهروبي من هذه الحارة الضيّقة، والمدرسة الصغيرة، من البيت الممتلئ بالشباشب ورائحتها البلاستيكية القاسية، ومن أمّي المتعبة التي تخرج همها فيّ..

أسمع صوتها قادمًا مع أخريات، يسرن ببطء وكأنّهن يخفن إصدار صوت، يدق قلبي بقوّة ولا أعرف سببًا للكهرباء التي ملأت الجو فجأة بالتوتر، أحاول النهوض من الفراش لكنّ يد أمّي كانت الأسبق، تعيدني إليه بيد صارمة وتتمتم: اصبري يا جيلان، دقيقتين وينتهي الأمر.

- أيّ أمر؟ ما الذي ستفعلنه؟



تجلس امرأتان خلف رأسي، يثبّتن كتفيّ بقوّة إلى السرير، بينما تجلس الثالثة أمام قدميَّ، تساعدها أمّي على خلع سروال بيجامتي، وملابسي الداخلية، تزيح النقاب بيدها لتتمكّن من الرؤية، أذكر وجهها المتصلّب، ولا مبالاتها وكأنّها تحضّر وجبة الإفطار لأولادها، أصرخ، أتمكّن من فهم ما الذي يحدث، كانت أمّي تتحدّث كثيرًا عن ضرورة الختان، تعدني بأكلة معتبرة وعصير مانجو بعد الانتهاء، أفرح بهذا الوعد كطفلة مسكينة، إلى أن كبرت وفهمت ما الذي تتحدّث عنه بالضبط.

تعتقد أمّي أنّها تقوم بتهذيبي، أرفسها بساقي فتتشبث بها أكثر.

- ماما، لا تفعلي، لم يعد أحد يفعل هذا، سأموت..

• لن تموتي، كُلّنا عِشنا بعدها، هل تصدّقين التلفزيون؟

- أصرخ أكثر، أشعر بصوتي يختفي مثلما يحدث في كوابيسي، أهزّ رأسي حتى تسقط نظّارتي على الأرض، تختفي الرؤية من حولي لكنّني أشعر بكل شيء، تفتح الممرّضة التي جلبتها أمّي من مستشفى شعبي صغير في نهاية الشارع حقيبتها، تُخرج مشرطًا رفيعًا وتجزّ جزءًا من جسمي دون مخدّر، يغشى عليّ من الألم، ولا أفيق سوى على نار مؤلمة تتصاعد في جسمي.



أبكي ثلاثة أيام في حجرتي، غير قادرة على التبوّل أو الحركة، تتعجب أمّي من بكائي، ومن رقادي الساهم على السرير بلا حراك.

الشبّاك المواجه لي لا يظهر سوى بقعة ضئيلة من السماء الزرقاء، أثّبت نظري الضعيف عليها، الرؤية ضبابية تجعل الشباك يمتدّ ويتوسّع، وكأنّني أسير داخل السماء، أحلم بعالم آخر بعيدٍ عن المدرسة وعن البيت وعن الشارع، لكنّي مقيّدة بألمي، لا أقوى على الهرب.

أتعافى بعد أيام، تنتهي فترة رفدي وأعود إلى المدرسة، أعود إلى مكاني في الصفّ الأخير كمنبوذة بعدما توقّفت عن فتل حواجب الفتيات، وانتهت أهميتي لهنّ.

لكنّي أنتظر حتى الانتقال للثانوي الصناعي.

المدرسة بعيدة عن البيت، في شارع هادئ راقٍ، أحبّ المشي كل يوم ذهابًا وإيابًا وحدي، أغرق في عوالمي الخاصة.

أتزوّج من الممثّل الذي أحبّ، أو أصادق مطربتي المفضلة.

في أحلامي أراني جالسة في شرفة قصر كبير، أطلّ على رعيّتي الذين يلوّحون لي بأيديهم، بجواري يقف الأمير الذي ينقذني من بيتي الضيّق، والشارع المزدحم ببائعي السوق، أتحرر من «باديهات كارينا» الضيقة التي تحيط بجسمي فلا



أستطيع التنفّس، وأرتدي فستانًا واسعًا عاري الكتفين، ونسمات الهواء تطيّر شعري.

أستعيد مكانتي في المدرسة وتتصاعد أهميتي بزيادة رغبة البنات في رسم حواجبهن.

القيود ضعيفة في المدرسة الثانوية وتغري بالتمرد، لكنّي أظلّ كما أنا، هادئة تمامًا، بالنظارة السميكة والحجاب المثني إلى الخلف.

كنت أمرّ على مركز الباشا الذي يتم تحضيره في طريقي كل يوم إلى المدرسة، سنة بأكملها أتابع طلاءه وتجهيزه وتركيب الأبواب والنوافذ الزجاجية، والتطعيمات الخشبية بالأرابيسك مثل القصور.

أشاهد الباشا يقف أمام المكان يتابع بصمت، يقف معه مساعدوه أحيانًا.

- أيّ خدمة؟

يفاجئني الباشا بالحديث وأنا أنظر إليه مبهورة، أرتبك، لا أعرف بما أرد.

• أأأأ،،، هل تريدون فتيات للعمل؟

- ماذا تجيدين؟

• أنا ممتازة في الفتلة.



- ممتازة؟ بكل ثقة؟

• نعم، جرّبني.

- حسناً لكن ليس الآن، يمكنك العودة بعد أسبوعين، سأحتاج إلى العديد من الفتيات الجديدات، المكان متّسع.

أعود إلى البيت وقلبي يرقص، أسبوعان فقط يفصلانني عن هذا المكان الشبيه بقصور أحلامي، عن الباشا الذي يبدو كفرسان الحواديت، المكان لامع بشكل لا يمكن تخيّله، لامعٌ لدرجة تجعلني أرى السوق، وسور المدرسة وبيتنا وكأنّها جميعًا مغطّاة بالأتربة والغبار.

أمّا من الداخل، فكان المركز أجمل مما تخيّلت، كل شيء لامع، نظيف رائع الجمال.

لأوّل مرّة أشعر ببعض المشاعر تتحرّك في صدري، كنت سعيدة وكأنّني عثرت على كنزي الخاص، وافق الباشا على تعييني فورًا بمجرد رؤيته لي ممسكة بالفتلة.

صعدت إلى الطابق العلوي، سلّمني الباشا تيشيرتين كـ «يونيفورم» ومريلة صبغة، وحقيبة أنيقة بها أدواتي، ومكان لخزانة في غرفة البنات.



كنت أشعر أنّني أملك شيئًا لأوّل مرّة، أملك أدوات وأهمية ومنصبًا، ومكانًا أعيش وأعمل فيه بكل فخر، وليس خفاءً في دورات المياه القذرة في المدرسة.

اشتريت بمرتّبي الأوّل مع نقود الإكراميات هاتفًا حديثًا بكاميرا، حتى هذا الوقت كنت أملك هاتفًا صغيرًا بالأزرار، اشترته لي أمّي بعدما دخلت المدرسة الثانوية الصناعية، التي حصلت على دبلومها وأنا أعمل في هذا المركز.

تكبّرت عن صديقات المدرسة منذ أن عملت، أمّا أمّي فلم تصدّق أنّني قادرة على الإتيان بكل هذه الأموال من الفتلة، حتى فرشتها صارت مجرد هواية، تجلس عليها لتبادل الأحاديث مع البائعات، وليس للرزق الجدّي.

الفتلة التي تَمَزّقَ جزءٌ من جسدي بسببها صارت عماد البيت، لكنّ أمّي لم تعترف يومًا بهذا.

لم تعترف يومًا بجرمها نحوي، أما أنا، فوضعت حاجزًا ضبابيًا أمام الذكرى، من الغريب قدرتنا على الغفران لمن نحبهم برغم فداحة فعلهم، أشعر وكأن حبي يجبرني على الخضوع والنسيان، أشعر أحيانًا أن الكراهية قوة لا يملكها إلا من يستحقها، أما الضعفاء فمبتلون بالحب، مبتلون باسترجاع مرارة الذكرى وحدهم في لحظات الصمت والسكون قبل النوم، دون حتى أن يملكوا القدرة على الصراخ ألمًا.



أمسك الهاتف بين يدي، ألتقط لي الصور في كل مكان، في البيت، أمام المَرَايا، في الكوافير، مع الزبونات، مع الفتيات، حتى الباشا وقف لحظة إلى جواري مبتسمًا وأنا ألتقط صورتنا معًا.

الحقيقة أنّني كنت ألتقط الصور له بلا توّقف، أدّعي أنّني أصوّره وهو يعمل، أصوّر تسريحة شعر العروس؛ لألتقط له الصور خلسة.

أنطلق ببطاقة الذاكرة إلى المكتبة المجاورة، تجلس رضا كعادتها خلف الكمبيوتر العتيق، تسمع أغانيها الوطنية التي لا تحبّ غيرها، تسألني طباعة؟ فأهز رأسي بالإيجاب.

تنهض متململة من خلف المكتب، تتناول منّي بطاقة الذاكرة، وتضعها في القارئ العتيق الذي لم يعد أحد يستخدمه، تضبط الصور على الشاشة وترسلها لجهاز الطابعة.

- ألوان أم أبيض وأسود؟

• ألوان طبعًا.

- بالتأكيد، القمر الأشقر يجب أن تطبع صوره بالألوان..

يحمرّ وجهي خجلًا، أصرخ فيها بأنّني أطبع الصور لدراسة تسريحات الشعر.

تلوك علكتها بفمها المفتوح وتهزّ رأسها بلا اهتمام.



- طبعاً طبعاً..

أنتزع منها الأوراق بعنف، وألقي لها بما طلبت، أهرع من جديد إلى الكوافير، إلى مكاني المنزوي في غرفة البنات، الشرفة الضيّقة التي تطلّ على المنور، أمام الحديقة الخلفية الواسعة الممتلئة بأصص النباتات الخضراء، مكان هروبي، المكان الوحيد الذي أرتدي فيه نظاراتي بخلاف العمل، أقرّبها من عينيّ بشدّة، وألتقط دفتري الذي أخبّأه أسفل الكرسي الثقيل المتهالك الذي لا يجلس عليه أحد.

دفتري هو في الأصل أجندة وزّعها علينا الباشا ضمن الآلاف التي وزّعها في كل أنحاء المدينة بمناسبة السنة الجديدة كما يفعل كل عام، دعاية تحمل صورته يقف خلف رأس عروس مرتفع بالتسريحة العالية، أتأمّل وجهه الجميل لحظة، ثم أفتح الدفتر للصق الصور الجديدة، كان هذا هو متنفسي الخاص، صوره وصوري، أقصّهما وألصقها بجوار بعضهما بعضًا، مقتربين، متلاصقين كما نستحق أنا وهو أن نكون.

ماذا لو اختارني الباشا من بين الجميع لينقذني من واقعي؟

التخيل وحده يجعلني قادرة على المواصلة، لكنه في ذات الوقت يزيدني عزلة



وإحباطًا، أضع مئات السيناريوهات التي يمكن أن تجعل هذا ممكنًا، ثم أستيقظ على تجاهله، أو مداعبته المستمرة لجيجي، فينكسر قلبي.

أكتفي بكتابة الجمل الرومانسية بجوار صورنا معًا، كلمات أغاني شيرين وإليسا بالأحمر والأخضر، أضع قلبًا بجوار صورته، وأكتب «عبالي حبيبي».

أُقَبّلُ الصور من جديد، وأغلق الدفتر، أخفيه بعناية، وأنزع نظّارتي لأعود إلى عزلتي الاختيارية مرّة أخرى.

أسمع جيجي تنادي عليّ من الخارج فأهرع إلى العمل، أنغمس فيه إلى المساء، وأذهب.

في اليوم التالي، كان كل شيء يبدو مختلفًا.

أدلف من باب الكوافير كالعادة، الموجودات الضبابية تهتزّ أمامي، حتى بدون نظارات.

كانت الابتسامات الشامتة حادة وقاطعة، أكاد أراها على الوجوه المبهمة المتشابهة أمامي.

أنظر إلى فتاة الكاشير التي نسيت اسمها، لكنّها تبدو في عالم آخر بعيدٍ، أقول صباح الخير لأقرب كيان بجواري، لكنّه لا يردّ، يبتعد وجسمه يهتزّ أكثر بابتسامة مكتومة.



في منتصف طريقي إلى الطابق الأعلى، تدوي أغنية «عبالي حبيبي» بصوت عالٍ، يقشعر جسدي، وأشعر بالشعيرات تنتصب أسفل رأسي، أُسرِع الخطى إلى غرفة البنات، وشبه دوخة تعتري رأسي، أتخبّط في السائرين فلا أعتذر ولا يبالون.

الضحكات الخافتة تتردّد من حولي، أبدو كالسائرين عرايا في الكابوس المقيت.

تتحوّل خطواتي إلى جري، أسرع لركني المنزوي، أمد يدي إلى حيث الدفتر، فلا أجده.

كانت الدنيا تدور بي، أرتدي نظاراتي، وأبحث أكثر، أمدّ يدي إلى أسفل الكرسي، وأمامي في الشرفة المجاورة، تسقي الجارة نصف النائمة الزرع وهي تنظر إلي بدهشة.

ساقاي ترتجفان وأنا أسير ببطء إلى مكتب الباشا، كنت أراهم الآن بوضوح، تميل عليّ فتاة من الفتيات وهي تغنّي أغنية إليسا بصوت أخنف، أدفعها بيدي بعيدًا وأكمل السير.

تقف نادية أمامي، تحاول إمساكي بيديها فأدفعها هي الأخرى، تستند على ظهر



كرسي مرتفع قبل أن تسقط أرضًا، لا أبالي بها رغم أنّها الوحيدة التي لم تكن تضحك.

هناك، أمام مكتب الباشا، كنت أراهما بوضوح، هو وجيجي يجلسان متلاصقين خلف المكتب، يتصفّحان دفتري الذي أعرف أنّه هو دون حتى إلقاء نظرة مقرّبة، ويضحكان.

كانت عيناها دامعتين من كثرة الضحك، وهو بوجهه المحمرّ الساخر يهتز بلا صوت، ينتهك خصوصياتي بلا مشكلة، يسخر من مشاعري علنًا أمام الحائط الزجاجي، كنت أقف متجمّدة أمامهما حتى انتبها إليّ، كانت جيجي تكمل ضحكاتها بلا رحمة، أمّا هو فنظر إليّ لحظة مرتبكًا.

أرى شفتيه تردّدان اسمي، يناديني فأستدير إلى الناحية المقابلة، أخلع نظاراتي بسرعة وكأنّني أدفن رأسي في الرمال، أعود إلى الغرفة في الشرفة الضيّقة، آخذ نفسًا عميقًا محملًا برائحة النعناع والريحان من الشرفة أمامي.

كانت نسمات الصباح لا تزال حانية، الشتاء يودّعنا بهدوء، وإليسا في الداخل تغنّي أواخر الشِّتا.

سيعود الجميع إلى أعمالهم بعد قليل، وسأبقى أنا، ينقصني جزء جديد من



جسمي، لم تمزّقه المشارط، وإنما قسوة الآخرين التي لا تختلف شيئًا ، ضحكاتهم الباردة، وشماتتهم الخفيّة.

أنظر إلى قعر المنور الذي يبدو لا نهائيًا بلا نظّارتي، أتذكر «أليس في بلاد العجائب» وهي تهوي إلى عالم آخر بعيدٍ وساحرٍ، أضع قدمي على الكرسي المتهالك فيهتزّ قليلًا ثم يثبت، فأصعد بالأخرى.

آخذ نفساً آخر، تنقصني خطوتين لأنتقل إلى عالمي الثاني البعيد، أحلامي غير الممكنة، كل ما أبغاه، مكان جميل برائحة النعناع والريحان، هادئ، ساكن، أجلس فيه لأسمع الموسيقى التي أحبّها، بلا بشر، بلا أمّي، بلا الباشا، بلا أحد.

أطلّ برأسي إلى الأسفل فتتشبّث بي يدان قويّتان، تشدّني إلى الخلف، فأهوى بالمقعد الذي يعلن استسلامه تحت ثقلي على الأرض.

تتشبّث بي نادية أكثر، كانت تبكي، أسمع نشيجها وهي تخفي أنفها في مؤخّرة رأسي. أحاول نزع يديها فلا أستطيع، تضغط عليّ أكثر، فأستسلم ليديها القويّتين على عكس جسدها النحيف.

أشعر بالخفة، أتحرر قليلًا، تختفي الغصّة في حلقي، أشعر بالاكتمال، وكأنّ قلبي



ينمو مجدّدًا داخل صدري، أتعجّب ممّا كنت أفكّر فيه منذ دقائق.. كيف جاءت هذه الفكرة إلى رأسي ولِمَ؟

أدير رأسي إلى نادية ونحن لا نزال راقدين على الأرض، كانت لا تزال تخفي وجهها في ظهري، لكنّها عندما رفعته، كنت أراها بوضوح لأوّل مرّة حتى بدون النظارة.

أرى ملامحها الهادئة الحزينة، هناك تجاعيد رفيعة غزت أسفل عينيها وجانبي فمها.

تتوقّف فيهما الدموع لحظة، لتتعرّج وتكمل مسارها.

نظرت إلى وجهي لحظة أخرى، ثم حرّرتني أخيرًا، كانت تنهض بتثاقل وهي تستند إلى كتفيّ بيديها، ثم استدارت لتبتعد بعرجتها التي بدت أثقل.

كانت هذه هي آخر مرّة أرى فيها نادية، لكنّ وجهها في هذه اللحظة بالذات، كان قد حُفِرَ في ذاكرتي إلى الأبد.



أم لوسيندا

ناديني أم لوسيندا، أم لوسي، أم لولو، أيّ اسم، ما دام مقترنًا بهذه الحروف البهية التي تكون اسم ابنتي.

أما اسمي قبل مجيئها فقد اقتربت من نسيانه، أتذكره فقط عندما يرسل لي الباشا مظروف راتبي الشهري، رغم أني أخبرته ألف مرة أن يكتب عليه أم لوسيندا، يضحك ويقول حاضر يا أم لوسيندا، لكنه ينسى ذلك بعد حين..

تراني في كل مكان في الكوافير، لا أتوقف عن التجول، ممسكة بأدواتي، لا يمكن أن تفوتني خصلة شعر ملقاة على الأرض دون كنسها فورًا، ولا بقعة على المرايات، ولا علبة سبراي موضوعة في غير مكانها، ولا منفضة سجائر غير



نظيفة، أنا أهم عنصر في الكوافير، دائمًا براق، يلمع، هذا اللمعان الذي يخطف عين من يدخله كل مرة.

الباشا لا يستغنى عني، منذ اليوم الأول الذي جلبني فيه مجدي زوجي إليه للعمل، مجدي نفسه يعمل حارس الأمن على الباب، وهو أيضًا مَنْ ينظم السيارات بالخارج، سيارات الزفة لعشرين عروس في اليوم يمكن أن تسبب أزمة حقيقية لولا وجود مجدي.

لأنني أفضل عاملة، يسمح لي الباشا بجلب لوسي معي، أتركها مع البنات في غرفتهن بالطابق الأعلى، الجميع يحب لوسيندا، كيف لا، وهي أجمل طفلة في العالم، هادئة ومطيعة، لا تفعل شيئًا، لم تعذبني لا في حملها ولا في ولادتها.

الرب يحميكِ يا لوسيندا، جئتني بعد شوقة.

أنجبتها في الأربعين، لم يصدقني مجدي وأنا أخبره بأنني حامل، هو نفسه تزوجني في الخامسة والخمسين بعدما اكتشف فجأة أنه عاش عمره كله دون زواج.

يعيش مجدي في بيت من طابق واحد، بناه بنفسه على سور السكة الحديد أمام سجن المدينة، تمتد البيوت المبنية بدون ترخيص على امتداد هذا السور بلا رقيب، لا أحد يتعرض لهم، محميين بحماية السجن نفسها، بينما أتجول أنا



بين الزائرين الواقفين في حرارة الشمس في انتظار البوابة لتفتح، أبيع المناديل، وحبات التفاح الصغيرة المغطاة بالكراميل يومًا، أو بعض ثمار الجميز، أو التوت في الربيع، أيّ شيء تجود به الدنيا والمزارعون في قريتي عليّ به، لكسب قوت اليوم.

أجلس بالطشت المعدني الصغير الذي يحوي ما أبيعه أمام باب بيت عم مجدي كما أناديه، يسمح لي بالجلوس في الظل في انتظار الزائرين قبل الزيارة وبعدها، كان المكان مثاليًا، أبيع ما معي في ساعتين زمن، ثم أعود إلى قريتي من جديد.

في أيام العطلات، أعمل في تنظيف المنازل، أكافيء طيبة عم مجدي بتنظيف منزله في أعياد القيامة والميلاد بالذات، بيته مبني من الطوب والخشب، ساحة صغيرة وضع بها مائدة ومقعدين وجهاز تلفزيون، ثم سلم مصبوب من الخرسانة بلا سور، يصل إلى الدور الثاني الذي هو عبارة عن غرفة واحدة بها سرير متهالك ودولاب وكنبة اسطمبولي قديمة.

لا يأخذ التنظيف سوى ساعتي زمن، أمسح الأرض بالفنيك، وأعيد ترتيب الأثاث القليل، أشد الملاءة على السرير، وأضع له بعض الورد البلدي الذي أبيعه في الأعياد، ينظر إليه ويبتسم، يقول البيت مختلف بوجودك يا ست يا رتيبة.



تحمر وجنتاي المشرطتين بفعل الزمن، أربط الإيشارب الأسود الصغير على رأسي للخلف بإحكام وأرد، الله يكرمك يا عم مجدي.

أمر على البيوت المجاورة، أنظف هذا المنزل، أغسل الصحون لمنزل آخر، «أزغط البط» لمنزل ثالث، أقوم بأيّة مهمة تُوكل إليّ، لأعود آخر النهار ببعض الجنيهات، التي أضعها في يد أخي الذي أقيم معه في داره، في قرية صغيرة على مشارف المدينة، لا تبتعد عنها كثيرًا، حتى أنني لا أركب أيّة مواصلة، أمشي المسافة بقدميَّ في الخف المسطح المتهالك، وكأنني أسير حافية، لكن قدميَّ كانتا قد تعودتا على هذه المشقة من زمن، حتى أنهما قد كونتا طبقة صلبة، ربما أصلب من الخف ذاته.

أعيش مع أخي عوض، وزوجته وأطفاله، في دار صغيرة فقيرة، هي دار أبانا في الأصل، تزوج أخي فيها وأنجب وعاش، لم أسأله عن إرث بعد وفاة والدانا، وهل يرث الفقير الفقير؟ يكفي أنه يتركني أنام على فرشة في الفسحة الصغيرة الخارجية، بينما يحتشد هو وزوجته والصغار في الغرفة الداخلية الخانقة.

هناك عشة ملحقة نربي فيها بعض الدواجن والبط التعيس الذي لا يسر الناظرين مثلي تمامًا، وكأنها صفة موروثة في عائلتنا حتى إلى الحيوانات التي تعيش تحت سقفنا.



أستيقظ من الفجر، أحاول أن أكون خفيفة دائمًا، أغادر من الصباح؛ سعيًا للرزق تمامًا كما يفعل أخي، نحن أرزقية على باب الله، لا نستقر على عمل، لكننا لا نعود إلى بما يسد رمق الأطفال.

لذلك كانت دهشتي عارمة عندما طلبني عم مجدي للزواج،

أبربش عينيّ كالفتيات الصغيرات، والابتسامة تخجل حتى من الظهور على شفتيَّ...

- أنا يا عم مجدي؟

• نعم،أريد أن ائتنس بك يا ست رتيبة، الوحدة مرّة.

كنت قد لغيت فكرة الزواج من عقلي، هل يعقل أن تعود إليّ الآن؟ أقترب من الأربعين بثبات، حتى أن الشعيرات البيضاء بدأت في الظهور من أسفل الإيشارب الأسود الذي أعصب به رأسي دائمًا كالعجائز.

- لكن..أنا بائعة..على باب الله

• كلنا على باب الله يا ست رتيبة..

أنظر إلى عم مجدي بشكل مختلف، كنا نقف أمام بيته في الصباح الباكر، أحمل «مشنة» بها بضعة كيلوات من العنب الأحمر، استطعت شراءها من المزارعين لبيعها اليوم أمام السجن، وكان هو يقف بزيّ العمل، قميص لبني مكسّر



يحشره حشرًا في سروال أسود يشده فوق كرش عظيم، كان يبدو وجيهًا رغم هرجلته، والشعيرات البيضاء النابتة في ذقنه، وشعره الخشن الأبيض الظاهر من أسفل الكاب الأسود مثل الضباط.

كانت الابتسامة مرسومة عريضة على وجهي الآن، طلبت منه أن ينتظر لأحدث أخي، وتركني هو ليذهب إلى العمل، لم ينس أن يترك لي مفتاح بيته، لو احتجت للراحة قليلًا.

أمسك المفتاح في راحتي وكأنني ملكت الدنيا، هل يمكن أن أحظى الآن بعد كل هذا العمر ببيت وزوج وحياة، بيت كامل وسرير بعد عمر كامل من الفرش على الأرض؟ أريكة وتلفزيون بل وصليب معلق على الحائط يمكنني تلمسه بدلًا من الصليب المرسوم في نتيجة عتيقة بهتت ألوانها المعلقة على حائط دارنا دون تغيير منذ عشر سنوات.

وكأنني كنت في حلم غريب، وكأن كل شيء يحدث لواحدة أخرى غيري، فيلم عربي كالأفلام التي أشاهدها وأنا أنظف البيوت، يبدو أن طاقة النور انفتحت لي، بركات العذرا تلفني من رأسي إلى قدميَّ.

أقف وسط الصالة الصغيرة دون أن أضيء اللمبة الصفراء المتدلية من السقف،



الشباك المطل على السجن يدخل بصيصًا من النور النظيف المميز للصباح الباكر، ونسمات لطيفة تحيط بي.

أقف أمام الصليب المعلق وأرفع عيني مبتهلة.

- أشكرك يا يسوع.

يعود عم مجدي من عمله آخر النهار، أقف بجوار الباب الذي تركه مفتوحًا منذ دخوله، يجلس على المائدة التي وضعت عليها طبقًا من الأرز وآخر من الخضار قمت بإعدادهما سريعًا، يكاد يطير من الفرحة بوجود غذاء مُعد وجاهز فور وصوله، يسألني والأرز يتطاير من شدقيه:

- متى يمكنني أن أفاتح أخيك؟

• أي وقت تريده يا عم مجدي

كنت أشعر بخجل لم أشعر به من قبل، وكأنني عدت إلى عمر السابعة عشر، يخبرني أنه سيزورنا غدًا، أشرح له بالتفصيل العنوان الذي يتلخص في اسم القرية ثم السؤال عن دار عوض.

أسير إلى البيت دون الشعور بالوقت، دون الاهتمام بالظلام، دون إلقاء قطع الحجارة التي أحملها دومًا معي على الكلاب الضالة اتقاء لها، اليوم أنا متسامحة مع كل الكائنات، فقط لو تسير كل الأمور هكذا بسهولة ويسر.



أدخل إلى الدار فتعرف زوجة أخي فورًا أن هناك شيئًا ما غريب في.

- ماذا بك؟

هل تظهر السعادة لهذه الدرجة على وجهي؟ أعود فورًا لأصطدم بأرض الواقع، هل يقبل أخي أن أتزوج وأنتقل من بيته؟ أحرمه وأحرم أولاده من الجنيهات التي أربحها يوميًا؟ تختفي لمعة عينيّ فور سؤالها، أصمت قليلًا، لكنني أصر على التشجع ومفاتحتها في الموضوع لتفاتح هي أخي.

- زواج؟ حقًّا؟

تنظر إلي وترفع حاجبيها، أقرر تجاهل تعبيرات وجهها المتعجبة وأرجوها أن تفاتح هي أخي، أخبرها بأنه يعرف عم مجدي جيدًا.

- عم مجدي؟ إنه مثل أبيك..

• أنا لست صغيرة يا رجاء

يدخل أخي من باب الدار في اللحظة نفسها ، يضع جوالًا يحمله على كتفيه أرضًا ويجلس ملتقطًا أنفاسه، تسارع رجاء لمساعدته، يسألنا فيما تتودودان..

تجيبه رجاء بصوت عال رغم رجائي..

- رتيبة جاءها عدلها..



ينظر إليّ عوض بدهشة..

- حقًّا؟

أقف أمامه بخجل رغم أنني أخته الكبرى، أتمتم باسم عم مجدي فقط دون توضيحات، يظل أخي ناظرًا إلي دون أي تعبير لعدة دقائق، لا أعرف ماذا أقول، لكنني فجأة أود قول الكثير، سأخبره أنني حرة، وأنني أود أن يكون لي حياة وبيت بعيدًا عن هنا.

أنني أريد فراش وأريكة ونافذة وتلفزيون ورجل أعد له غذاءه، إنني تعبت من السير كل يوم من الفجر سعيًا للرزق، وإنه رجل قوي وقادر على إطعام أهل بيته.

لكني قبل أن أفتح فمي بكلمة، كان ينهض من مكانه، يعانقني بقوة، يقول مبروك بسعادة حقيقية.

- لقد استجاب الرب لصلاتي، سأطمئن عليك يا رتيبة.

كانت رجاء تنظر إليه دون أن تجرؤ على قول شيء، أما أنا فكانت دموعي تسيل بلا صوت، أشد ذراعيَّ حول أخي الذي لا أذكر متى أحتضني آخر مرة، لا أذكر متى ضمني أيّ شخص من الأصل، كانت هذه جرعة كبيرة من السعادة



لم أكن قادرة على تحملها، لكني سرعان ما اعتدتها، بينما تسير الأيام بسهولة ويسر كما تمنيت.

يتفق مجدي مع أخي على كل شيء، نتجه إلى الكنيسة القريبة في المدينة لعقد الجبانيوت، يشتري لي مجدي دبلة ذهبية حقيقية، أضعها في يدي غير مصدقة، ويشتري لنفسه واحدة، كما يصر على شراء سلسلة من الذهب الصيني من المحل على ناصية شارع الصاغة، اختارها على شكل صليب صغير، يعقدها هو حول رقبتي.

كنت قد تخليت عن الإيشارب الصغير، وتركت رجاء تمشط شعري وتضع لي بعض المساحيق، كنت أشعر بالفعل أنني جميلة وكان مجدي يراني كذلك.

لم يكن هناك شيء لننتظره سوى وثيقة الموافقة على الزواج من الكاتدرائية؛ لذا قضيت الوقت في تجهيز بعض المتاع القليل الذي هادتني به الجارات، كما منحتني رجاء بعض من جهازها، وأشتريت أنا بعضه الآخر بمدخراتي القليلة.

أنتحي بعوض جانبًا أسأله عما سيفعل بعد انقطاع دخلي في البيت، يخبرني ألا أقلق، وأن أهتم فقط بسعادتي، لكني كنت أفكر بالاستمرار في العمل بعد الزواج ومساعدته، بالتأكيد لن يمانع مجدي، فهو طيب وابن حلال.



في يوم الزفاف، جاء مجدي لاصطحابي في سيارة أحد العاملين بالكوافير الذي أصر على أن يزفه بنفسه، كان يرتدي بذلة سوداء ضيقة يبدو أنه استعارها من أحد الأصدقاء، لكنه بدا في غاية اللطف، أما أنا، فأجرت فستانًا أبيض من محل قريب متعهد بأفراح قريتنا، أركب إلى جوار مجدي السيارة المزينة بالورود كأنني أميرة، لننطلق إلى الكنيسة لعقد الإكليل.

لم نقيم حفلًا بعدها، لكننا ذهبنا إلى مقهى قريب من الكوافير القديم، علمت فيما بعد أن الحاج نفسه هو من قام بالحجز لنا فيه كهدية زفاف لمجدي، هناك، كان بعض العاملين ينتظروننا للاحتفال، بينما لحق بنا أخي وزوجته وأطفاله.

حتى الحاج جاء بنفسه مع ابنه ليبارك لنا سريعًا.

الحقيقة أنني شعرت بأنني هانم حقيقية، لقد انتقلت من مستوى إلى مستوى آخر جديد عليّ، كنت منتشية بالفرحة، حتى أنني شعرت بعدها وكأنني بالتأكيد أخذت نصيبي كله من السعادة في هذه الأيام، فكان حتميًا أن يحدث لي كل ما حدث، لكنني سرعان ما أطرد أفكار الشيطان هذه من عقلي، وأعلم أن كرم الرب لا يفنى، وعطاياه لا تنتهي.

عندما علمت أنني حامل، فهمت جملة «كاد قلبي أن يتوقف» التي نقولها في كل موقف تافه لا يقارن.



هذه المرة أشعر أن هناك دقة قد فوّتها القلب بالفعل، بعدما أخبرني الطبيب في طواريء المستشفى الإنجيلي بالكلمة.

كنت قد توجهت إلى الطواريء بعد ذهاب مجدي إلى العمل بعد زواجنا بشهرين أو أكثر قليلًا، كان يرحل مبكرًا ويعود متأخرًا، يقف بنفسه مع الباشا الصغير ليشرف على العمال الذين يعملون على إنهاء المركز الكبير المنتظر افتتاحه، فلم أرد إرهاقه بالمزيد من العبء، كنت أشعر بالإعياء والغثيان، واعتقدت بأنني مصابة بالبرد الشديد، أقول للممرضة بتثاقل:

- حيلي مهدود يا سيستر..

تسألني عن آخر ميعاد للدورة الشهرية، أخبرها بأنني لا أتذكر، لم أكن أتخيل حتى أن هذا ممكنٌ، تطلب عينة بول وتضع فيها اختبار للحمل، تعود إلى الطبيب الذي يطلب عينة دم للتأكد.

يأتيني الطبيب بالنتيجة بعد نصف ساعة، يقول مبروك، فأكاد أفقد الوعي، يكتب لي في الروشتة بعض المقويات، يقرأ لي الأسماء والمواعيد فلا أسمع شيئًا، أتناولها من يده بيد ترتجف، أمشي بحذر وكأنني في شهوري الأخيرة، أقرر أن أمر على مجدي في الكوافير لأخبره.

كان هناك واقفٌ وسط العمال والرمال والأسمنت، العرق يغمر أسفل إبطيه



ووجهه، وشعره الأبيض أكثر بياضًا بفعل التراب، ربطة عنقه ملقاة على كتفه، والقميص يخرج من سرواله بفوضى، كان يبدو رائعًا للغاية، وأنا كنت أضحك بشدة حتى أنه التفت إلى صوت ضحكتي وأنا أقف بعيدًا على رصيف المحل المقابل.

يأتي باتجاهي مسرعًا والدهشة تطل من ملامحه، يسألني ما الذي أتى بي، لا أستطيع التوقف عن الضحك، أريد أن أستجمع كلماتي لأخبره، لكني كنت أضحك وأشعر بالدموع تنساب من عينيّ في الوقت ذاته، يمسكني من كتفي ويطلب من السيدة في المحل أن تجلب لي كرسيًّا فتفعل، أجلس وأنا لا أتوقف عن البكاء والضحك، تربت السيدة على كتفي وهي تنظر إلي بشفقة، يجثو مجدي على ركبتيه أمامي ويسألني ملهوفًا عما حدث، أخيرًا أستجمع قوتي وأخبره بالجملة

- أنا حامل يا مجدي..تخيل أنا حامل..

لم ينطق مجدي بعدها، صمت لحظتين ثم بدأ يقهقه بقوة معي، يضحك ضحكته المحشرجة التي أحبها، يضحك ويسعل وأنا أضحك وأبكي، والسيدة في المحل تضحك معنا وتضرب كفًّا بكف.

لازلت أذكر مجدي وهو يقف في منتصف الشارع أمامي وأمام العمال الكثيرين،



وسط الرمل والأخشاب الملقاة وجبال الطوب وتلال الأسمنت، ويرقص فاتحًا ذراعيه.

الرجل الكبير ذو الشعر الأبيض يرقص ويضحك والجميع يضحك معه، يخبرهم أنه سيصبح أبًا فيشاركه العاملون الرقص في منتصف الشارع.

إذا سألتني عن أسعد ثلاث لحظات في حياتي، ستكون هذه واحدة منهم، الثالثة هي يوم طلبني مجدي للزواج، والأولى بالطبع يوم رأيت لوسيندا للمرة الأولى.

لم تكن شهور الحمل سهلة، كانت عذابًا شديدًا تحملته بمفردي بدون شكوى، كان مجدي يحاول جاهدًا مساعدتي بكل الطرق، بينما كان أخي مشغولًا بالسعي على رزقه طول الوقت، تأتيني زوجته يومًا في الأسبوع لمساعدتي بأعمال المنزل وتغيب طويلًا انشغالًا بأولادها، لكنني لم أشتكِ قط، كنت أصلي كل يوم شكرًا للرب على نعمته، أتاني مجدي بصورة كبيرة للعذرا تحمل طفلها، أضعها أمام عيني وأحلم باليوم الذي سأحمل فيه طفلتي أنا الأخرى.

وكأنني منذ أتيت إلى الدنيا كانت هذه هي مهمتي الأسمى، أن أكون أمًّا، أم لطفلة بالذات، أسميتها من قبل أن تأتي، ولم أبال بأن تخبرني الطبيبة في المستشفى بجنسها في الفحص الشهري، لأنني كنت أعلم أنها لوسيندا.



أرى لوسيندا وأشعر بها من قبل أن تتكون، أرى بطني تكبر أمامي، أمسها بحنان أعلم أنه يصلها، يأتي مجدي كل ليلة ليضع أذنه على بطني، لا يصدق أنه بهذه السرعة، صارت له حياة، وعائلة، أنه لم يعد وحيدًا يعيش في صمت، أن هذا البيت لم يعد يتردد فيه صوت القطار فقط، وصوت التلفزيون الذي لم يكن يشعله إلا قليلًا، اليوم سيملؤه صوت طفلة حقيقية، تبكي وتلعب وتضحك وتكبر وتذهب إلى المدرسة، ربما يعيش ليزوجها أيضًا، ويرى أطفالها ويحملهم بيده.

تخبرني الطبيبة أن فرصة الولادة الطبيعية محدودة في سني هذا، وأنها حتمًا ستضطر إلى اللجوء للولادة القيصرية، أبتسم لها وأخبرها بأنني لا أبالي لو قامت بشقي إلى نصفين لإخراج الطفلة، المهم أن تأتي سليمة.

تضحك الطبيبة وأضحك معها، كانت أيامًا جميلة.

أيام أستعد فيها لوصولها، أخيط لها بنفسي فستانًا أبيض صغيرًا ليستقبلها فور ولادتها، يشتري لها مجدي كنزة وردية وسروالًا يناسبان فتاة في عمر السنتين، أضحك كثيرًا عليه، أخبره بأن مقاسهما كبير، فيزمجر قائلًا إنها حتمًا ستحتاجهما ولو بعد حين، أطيب خاطره وأقول طبعًا، أطبقهما وأضعهما في الدولاب في مكان واضح ليراهما دومًا، حتى ترتديهما له بعد عامين.



في يوم الولادة، يأتي زميل مجدي من الكوافير بسيارته ليوصلنا، اسمه ماجد، هو نفسه الذي زفنا يوم الفرح، أقوله له يا وش الخير فيبتسم خجلًا، يربت مجدي على ظهره بعصبية شاكرًا، كان متوترًا يدخن كل دقيقة سيجارة ويلقيها دون أن يكملها، أرى يديه ترتعشان، بينما أطبق أنا على الصليب المعلق في عنقي، أصلي إلى العذرا لتباركني وتبارك لوسيندا، نصل إلى المستشفى فأدخل إلى غرفة الانتظار وحدي، أحمل بطانية كما طلبوا مني، وأجلس بروب العمليات الأخضر، وغطاء الشعر.

تركت ملابسي وصليبي مع مجدي لكني لا أتوقف عن الصلاة، كان قلبي يدق سريعًا، أشعر برهبة ووحدة، لكني أتلمس بطني وأحتمي بفتاتي، فأشعر بالأمان.

تدخلني الممرضة إلى الغرفة ناصعة البياض، يتركوني وحدي دقيقتين، تدور عيناي في الحيطان المغطاة بخزانات وأدوات غريبة، إلى الكشاف الضخم المعلق في السقف، فجأة أشعر بالعشرات يحيطون بي، أنام على السرير، يفردون ذراعي على خشبتين كالصليب، كنت مصلوبة كالمسيح تمامًا، فزاد إيماني باقتراب خلاصي، يحقنوني بالمخدر ويضعون القناع على وجههي فأغيب عن الوعي.

ثم أفيق..



أشعر بحركاتهم من حولي، يدفعونني إلى المصعد فأحاول التحدث

- أين ابنتي؟

تقرب ممرضة أذنها إليّ لتفهم ما أقول..

- بخير يا حبيبتي، سنجلبها لكِ بعد قليل..

• أشكرك..شكرًا يارب..

أشعر بالبرد الشديد، أرتجف بقوة حتى أن أسناني تصطك، هناك ألم رهيب في بطني وظهري، لا أشعر بساقيَّ، أقول غطيني أرجوكِ..بردانة

- سأجلب لكِ بطانية أخرى..

أصل إلى جناح النساء، يحملونني من الترولل إلى السرير، يضعونني برفق لكنني أشعر أنهم يلقون بي من الدور العاشر، أصرخ فيبكي مجدي بجواري، أنظر إليه وهو ينحني ليلثم يدي، أربت على خده، وأسأله عن الطفلة.

- قادمة، أخبرتني الممرضة أنها ستجلبها حالًا.

بجواره يقف أخي وزوجته، تجلب لي الممرضة لوسيندا أخيرًا، يحملها مجدي ويقبلها وهو لا يتوقف عن البكاء، أمد يدي المرتعشة إليها، فيقربها إلى وجهي، أرى وجهها للمرة الأولى، متغضن وأحمر، صغيرة وجميلة جدًا، أشعر بالدموع تسقط من عيني أنا الأخرى، وأذهب في سبات عميق.



عندما دخلنا إلى البيت مع لوسيندا، كان كل شيء مضيئًا ورائعًا، استبدل مجدي اللمبة الصفراء بأضواء النيون الأبيض، طلى البيت كله باللون الأبيض، وأشترى مائدة جديدة بثلاثة مقاعد وكأنها ستشاركنا الأكل من اليوم الأول.

اشترى لها أيضًا سريرًا خشبيًا صغيرًا بجوار السرير الكبير، وبعض الألعاب المحشوة الجميلة، كنت أتطلع إلى كل هذا بسعادة.

- كيف تحملت كل هذا؟

• لوسيندا وش الخير، منحني الباشا مكافأة، ثم وزع علينا مكافأة أخرى بسبب افتتاح المركز الكبير، ولا تنسي النقوط، أولاد حلال في الكوافير، حتى البنات نقطوني يا رتيبة..

- أم لوسيندا

• ماذا؟

- ناديني بأم لوسيندا، يا أبو لوسيندا..

نظر إلي وابتسم، بدا وكأنه يستطعم الاسم الجديد، من يومها وهو يناديني بأم لوسي، إلا عندما نتعارك.

تتم لوسي عامها الأول وهي لا تمنحني سوى الفرح، لا أنام ولا أتوقف عن خدمتها لكنني لا أشتكي، كان كل شيء له طعم جديد ورائع، تفتح عينيها



الزرقاوين الكبيرتين فتضحك الدنيا، ينبت شعرها الأشقر الخشن، فأتباهى به، وأبدأ بوضع التوك الصغيرة وربطات الشعر الملونة.

أقضي بعض الوقت في خياطة الفساتين الملونة، أو حكاية الحكايات، أو تجربة الخضروات الجديدة المهروسة، والفاكهة المختلفة لها.

حتى أتى اليوم الذي سألني فيه مجدي إن كنت أود أن أعمل معه في الكوافير.

يخبرني أنني سأكون ولوسي إلى جواره، سيحظى برؤيتنا أكثر بما أنه يعود ونحن نائمون ويذهب ولوسي نائمة، أو ينام طيلة النهار ويذهب بالليل.

- كما أن الباشا سيجزل لكِ العطاء، يمكنك مساعدة أخيك كما كنت تتمنين، ويمكنك اصطحاب لوسي، ستتسلى بدلًا من الجلوس في البيت طيلة النهار.

أفكر جديًا في العرض، يضغط عليّ بورقة عوض لأنه يعلم أنه في حالة متعثرة وأنني أود مساعدته، والحقيقة أنني كنت أود أيضًا الخروج من المنزل، ورؤية البشر.

أوافق على العرض وأبدأ العمل في المركز الضخم المبهر، أترك لوسي في غرفة البنات، يتناوبن على الاعتناء بها، يقع كل من يراها في غرامها فورًا، من لا يمكنه حب لوسيندا الجميلة، لا أعرف من أين ورثت هذا الجمال، لكن مجدي



يصر أن والدته كانت تتمتع بعيون ملونة وشعر أشقر، فأهز رأسي موافقة حتى لا يغضب.

أشعر أنها جاءت جميلة من كثر نظري إلى صورة العذرا، كنت أتمنى أن تأتيني فتاة جميلة الروح مثلها، وجمال الروح ينعكس حتمًا على الخلقة، كانت لوسي جميلة وطيبة، تداعبها البنات ويلاعبنها ويشترون لها أكياس من الحلويات، بالذات نادية، الفتاة الجميلة السمراء التي تملك عرجة بسيطة في ساقها، كانت شبه متفرغة، لذلك كانت لوسيندا تجلس معها معظم الوقت في غرفة الست منى، حتى الباشا يقبلها ويعطيها قطعًا من الشيكولاتة الثمينة، كنت أعلم أنه لم ينجب، أدعو الرب أن يرزقه كما رزقني، وأعود أنا ولوسيندا كل ليلة محملتان بحقيبة مليئة بكل ما لذ وطاب.

لكن لوسي لم تكن تأكل كل هذا، كانت ضعيفة للغاية، وكنت أتوسل لها أن تأكل، يخبرني مجدي أن كل الأطفال هكذا، وأنها حتمًا ستزداد وزنًا كلما كبرت، كانت ستكمل العامين خلال شهور، لكنها لم تصل إلى الوزن المثالي بعد كما أخبرني الطبيب في المستشفى عندما ذهبت إليه ليفحصها.

أشعر في قلبي بأن هناك شيئًا غير طبيعي، زاد القلق عندما نادتني إحدى الزبونات لتسألني عن لوسيندا التي تسير خلفي ممسكة بطرف جلبابي.



- هذه طفلتك؟

- نعم

تحملها إلى ركبتيها، تتلمس عنقها وخلف أذنيها، تسألني عن الانتفاخ فيهما، فأخبرها أنني لا أعرف.

- أنا طبيبة أطفال، ربما عليك أن تفحصي الطفلة، أين تذهبين عادة؟

- المستشفى الإنجيلي.

تخرج ورقة من حقيبتها وتكتب حروفًا بالإنجليزية، تناولني الورقة وتمنحني إياها، تبتسم ملطفة الأجواء.

- لا تقلقي، فقط أعطي الورقة لطبيبك، فحص معتاد للأطفال حتى لا نقلق

أشكرها لكني بالطبع أقلق، هذا الشعور بعدم الأمان يلفني وكأنني صرت عارية فجأة أمام الجميع، أشعر أن قلبي يسقط في بطني، وتتجمع القطرات الباردة على جبيني.

أعلم أن السعادة المستمرة أكذوبة كبيرة، هناك دائمًا شيء ما يحدث، شيء ما يذكرك بأن الحياة لا يمكن أن تمنحك كل شيء.



- رب لا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير

أجلس مع مجدي في انتظار نتيجة التحاليل، كانت لوسي قد استسلمت منذ أيام لأخذ خزعة من ظهرها تحت المخدر بينما كاد قلبي يتوقف عليها، أنا التي لم أكن قادرة على تخيل إجراء عملية اللوز لها، أراهم وهم يغرزون إبرة طويلة في ظهرها بعد أن رفضت الخروج وتركها وحيدة، فاضطروا إلى إلباسي رداء معقم وكمامة وتركي إلى جوارها.

اليوم، ترتدي لوسي الكنزة الوردية والسروال الأزرق اللذين اشتراهما لها أبوها قبل مولدها للمرة الأولى، تجلس على ساقيَّ، تداعب أنفي وفمي بيدها وتضحك، أنظر إليها، أملأ عيني بوجهها الجميل، يربت مجدي على ركبتي مشجعًا، نجلس وحيدين في الردهة شبه المظلمة، أمامي لوحة خشبية مكتوب عليها آية من إنجيل يوحنا...

هذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ، بَلْ لأَجْلِ مَجْدِ اللهِ

يقترب منا طبيب صغير السن، يقف أمام مجدي ممسكًا بأوراق، يداعب شعر لوسي بيديه، يحاول رسم ابتسامة لكنه يعجز عن ذلك، أفهم كل شيء دون شرح، يخبر مجدي بتفاصيل أصبحت بعد ذلك هي عالمي وحياتي، يخبره عن ضرورة توجهنا فورًا إلى معهد الأورام، والبدء في العلاج، وأن سنها الصغير



يساعد على سرعة الشفاء، كان العالم يدور بي وحياتي كاملة تمر أمام عينيَّ، هل منحني الرب نعمته ليأخذها مجددًا وبهذه السرعة؟

- لماذا يا رب؟

ينظر إلي الطبيب ومجدي فأكتشف أنني نطقتها بصوت عال، أبكي بصوت عال فينهرني مجدي، تربت لوسي على خديّ بيديها الصغيرتين، أعلم أن مجدي يحاول استجماع شجاعته، ينهض مصافحًا الطبيب، يربت الأخير على ظهره ويبتعد.

يرفع مجدي سرواله على وسطه، يبدو وكأنه فقد نصف وزنه فجأة، تزداد التجاعيد في وجهه ظهورًا، يأخذ مني الطفلة ليحملها هو، يسير بها أمامي وأنا خلفهما بكتفين مهدلتين، كبرت نصف عمري في هذا اليوم، إن سُئلت عن أسوأ ثلاث لحظات في عمري، سأقول هذه اللحظة، هذه اللحظة، هذه اللحظة.

يستقبلوننا في معهد الأورام الصغير في المدينة باحتفاء وتعاطف، هناك أيضًا فرع لمستشفى الأطفال للسرطان لكن الطبيب نصحنا بالذهاب إلى المعهد أولًا، يدرسون حالة لوسيندا جيدًا، ويجرون لها تحاليل أخرى وأشعة على الصدر.

أطلب من مجدي أن يذهب إلى العمل، لأننا سنحتاج إلى كل مليم الآن، أحاول التماسك من أجل ابنتي، أحاول التمسك بالقوة وبالإيمان، وأتذكر العذرا التي



حملت يسوع وغادرت من القدس إلى مصر دون أن تعرف مصيرهما، لا تحمل معها سوى إيمانها، فحماهما الرب.

يتفق الأطباء على العلاج الكيميائي المكثف لمدة شهر إلى شهر ونصف، بعدها تبدأ مرحلة جديدة طبقًا للنتائج.

تخبرني طبيبة مهذبة ترتدي النظارات أن العلاج في حالة لوسي نسبته عالية جدًا، وأنني يجب أن أتفائل.

- يمكنها أن تشفى تمامًا خلال سنة، بعدها ثلاث سنوات أخرى من النقاهة وينتهي هذا الكابوس.

لا أتوقف عن الشكر والدعاء لهم، أشعر أنني لا أفهم أي شيء، لكنني أترك لهم لوسيندا ليفعلوا بها ما يشاءون، كانت تتألم وكنت أنا أتألم أكثر، أود أن أمتص ألمها هذا كله إليّ فلا تشعر هي بشيء.

- يارب انقل إليّ ألمها يا رب..ياعذرا خففي عنها من أجل يسوع

يخبرني الأطباء أنني سأضطر للسفر كل أسبوع مرة واحدة إلى معهد الأورام الرئيس في القاهرة، كانت الكلمة مرعبة بالنسبة لي، لم أذهب إلى هناك قط، ولا أعرف حتى كيف يذهبون، لكن الطبيبة تأخذني من ذراعي إلى سيدة تجلس



بجوار طفلها الذي يتلقى جرعته في الوريد، تقول لي إن الأمهات والآباء يتجمعون كل أحد للذهاب معًا إلى المعهد، وأن بإمكاني الانضمام إليهم.

أجلس إلى جوار السيدة الشابة التي ترتدي سروالًا من الجينز وقميصًا واسعًا وحجابًا أبيض، تسألني عن حالة لوسيندا فأخبرها بما فهمته، تكتب اسمي واسم لوسيندا في كتيب صغير تحمله، تقول سأحجز لكِ تذكرة في القطار، نحن نركب معًا عربة واحدة حتى نأتنس، وفي المحطة ينتظرنا آباء آخرون بأتوبيس للذهاب إلى المعهد.

تطلب مني ثمن التذكرة فأناوله لها، تؤكد على وجودي في تمام الساعة السابعة والنصف صباحًا يوم الأحد فأهز رأسي موافقة.

أخبر مجدي بكل ذلك فيبدو عليه القلق، هل سأتمكن من السفر وحدي بالصغيرة؟ فأخبره بأن السيدة ستكون معي، يوصلني يومها إلى المحطة بنفسه، ويتأكد من شحن هاتفي برصيد كافٍ، ويضع في يدي كل ما معه من نقود.

- كوني معي على الهاتف لحظة بلحظة.

أعده بذلك، أجد السيدة حنان تنتظرني مع آخرين، أطفال كثر يقفون أو يحملهم آباؤهم وأمهاتهم على الرصيف في انتظار قطار الثامنة إلا الربع، الذي



يصل أخيرًا فنركب في العربة رقم 4، التي ستصبح جزءًا من جدول حياتي لمدة 6 أسابيع.

أجلس مع لوسيندا في العربة الباردة، تنام الصغيرة على ساقيّ، فأغطيها بوشاحها، يشب الأطفال الأكبر على مقاعدهم لينظروا إلى الوافدة الجديدة، أنظر إلى وجوههم الصغيرة الخالية من شعر الحاجبين والرموش، رؤوسهم الصلعاء تمامًا، أنقل بصري إلى لوسيندا، أشعر بقلبي يعتصر عليها، لأنها في طريقها لتفقد هي الأخرى شعرها الخشن الأشقر الذي أحبه، رموش عينيها وحاجبيها.

كانت الرحلة طويلة وشاقة، أما معهد الأورام في القاهرة فكان ضخمًا مزدحمًا بالناس، لكن السيدة حنان ساعدتني في الانتهاء من الإجراءات الأولية، لتحصل لوسي على جلستها.

في طريق العودة كان كل الأطفال نائمين، في عربة السرطان كما يسميها محصلو القطار كما عرفت فيما بعد، تسير فتاة شابة بين المقاعد، تدير عينيها بين الأطفال المتشابهين كلهم بتعجب، يبدو أنها لم تجد مقعدًا شاغرًا إلا بجواري، أحمل حقيبتي لتجلس، تنظر إلى لوسيندا ثم إليّ، تحاول أن تبتسم لي لكنها تتراجع،



نصف ابتسامة تشي بكل ما تريد قوله، تدمع عيناي فتدمع عيناها هي الأخرى، تهمس: الله يشفيهالك، فأربت على كتفها بهدوء.

أصمم على العودة إلى العمل، رغم أن مجدي يطالبني بالجلوس والاعتناء بلوسي في البيت، أخبره بأنها بخير، وأنها ستصبح بخير، وأننا سنعيش حياتنا بطبيعية.

كنت أصيح في وجهه لأول مرة، بينما أمسك في يدي بخصلة من شعرها الخشن التي خرجت في يدي وأنا أمسده بأصابعي، يحاول تهدئتي، فأصيح أكثر، في النهاية يتركني ويذهب، فأتوقف بعد دقائق عن الصراخ.

أحمل لوسيندا وأتجه إلى الكوافير، كان الجميع قد علم بمرضها، يستقبلونني بالأحضان والقبلات، يحاولون مواساتي بالكلمات، يتناولن لوسي من بين يديّ، تحملها الفتيات ويناولنها لبعضهن بعضًا، يبالغن في تقبيلها وتدليلها أكثر من ذي قبل، أنتحي بنادية جانبًا، وأطلب منها أن تقص شعر الفتاة تمامًا.

مع نادية لا داعِ للشرح، هذه الفتاة تفهم تمامًا ما يدور في رأس كل شخص في هذا الكوافير، ربما كنت جاهلة أجيد القراءة والكتابة بصعوبة، لكني أعرف أنها مختلفة عن الجميع، وفي الحقيقة لا يشغل بالي كل هذا، إن كانت قادرة على مساعدتي، فلتكن حتى عفريتًا.



لكنها لا تفعل شيئًا، تكتفي بقص شعر لوسيندا التي تبكي كثيرًا، لكني أحاول أن أشرح لها أن كل الأميرات يبدين هكذا الآن، يشتري لها الباشا عروس صغيرة بلا شعر، يقترب منها مداعبًا، يجلسها معه في مكتبه وأنا أنظفه له، أشكره على مواقفه الكثيرة التي غمرنا فيها بالكرم.

تنتهي لوسي من الجلسات الكيميائية، ويكتفي الأطباء في المعهد بأدوية أخرى وجلسات وريدية كل أسبوع، يخبرونني أنها في طريقها للشفاء، لكن الكابوس لم ينتهي تمامًا، كنت أريد أن أنام وأستيقظ لأجدها كما كانت، شقراء جميلة صحيحة الجسد بلا سرطان.

في هذا اليوم، كانت المدينة مشتعلة بأخبار الانفجار في كنيستها، الكنيسة نفسها التي شهدت زواجي، والتي كنت سأتوجه إليها مع لوسيندا اليوم للصلاة لولا جلسة علاجها في المعهد.

يقرر الباشا إغلاق المركز مبكرًا بعض الشيء، ويطلب مني أن أذهب إلى المنزل وأطلب من مجدي المجيء لاستلام النوبة الليلية قبل موعده الليلة، أهز رأسي موافقة لحين مغادرة الجميع.

لم يتبق سوى نادية..



تهبط إلى الطابق الأرضي فتراني جالسة على الأرض بجوار الباب، وبجواري لوسي.

تقترب مني متسائلة، فأخبرها عن الانفجار

- نعم، أمر مؤسف ..

• لو لم تكن لوسيندا مريضة لكنا ميتتان اليوم

تنظر إلي وتبتسم ابتسامة خفيفة، هذه الفتاة تعلم كل شيء.

- أريد أن أتأكد أن السرطان سيختفي تمامًا..

• كيف يمكنك أن تفعلين؟

- أنت تعرفين كيف..

كنت أنظر إليها وصدري يعلو ويهبط، هناك فرصة كبيرة أن أبدو مجنونة لكني لا أبالي، يداي ترتعشان، لكني مستعدة لتقبيل قدميها لو أرادت.

- يا ست نادية أنت تعرفين كل شيء..

تنظر إلي بحزن عميق..

- لكني لا أملك شيئًا..صدقيني، والله لا أملك شيئًا، لقد اكتشفت الليلة أنني أضر ولا أنفع..



- لكنك تنقذين النساء، انقذيني، سأموت لو فقدتها..

تنظر إلى لوسيندا الجالسة على الأرض تنظر لنا ولا تفهم شيئًا، إلى شعرها الذي بدأ في الإنبات.

- لم أستطع أن أنقذ السيدة فلك..تعرفينها؟ السيدة الطيبة التي لا تؤذي أحدًا.

- نعم، سمعت بما حدث، لكن..يمكنك التعويض الآن..يمكنك أن تنقذي طفلة

- أنت تطلبين أمرًا صعبًا..لم أفعله إلا قليلًا، ثم أنه..

أقاطعها دون أن تكمل..

- لكنك قادرة عليه أليس كذلك؟

تنظر إلي وكأنها تفكر، ثم تحمل الطفلة إليها، تبتسم فتبتسم لها لوسيندا، وتطوقها بذراعيها الصغيرتين، تقرب نادية رأسها من رأس الصغيرة، تتماس جبهتيهما، فأشعر أنا بالوهن للحظات، وكأنني سقطت في بئر عميق أو فقدت الإحساس بالوقت، لم أشعر سوى بلوسيندا تمسك يدي ونحن واقفتان أمام الباب، بينما تبتعد نادية إلى داخل الكوافير.



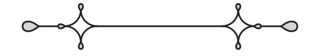
تبدو مختلفة أم أنني أنا التي لا أرى؟

أنظر إلى لوسيندا فأرى شعرها الأشقر الخشن طويلًا وفوضويًا، منكوشًا كما كان قبل كل هذا، أفرك عينيَّ وأقترب منها، ألمسه بيدي، أجذبه وأشده، تتأوه لوسي، فأحملها معتذرة..

- آسفة يا لوسي، آسفة يا حبيبة ماما

أفتح الباب الزجاجي بسرعة لأذهب إلى البيت، بينما أسمع خطوات نادية من ورائي، أخرج بينما تمسك نادية بالباب لتخرج من ورائي، ألتفت إليها لأحتضنها بقوة، كانت تحاول تعديل شعر مستعار أسود وضعته بسرعة على رأسها، أنظر في عينيها بقوة فتضع إصبعها على فمها مبتسمة تدعونني للصمت، أحتضنها من جديد وأنا أبكي فتدفعني لأذهب، أخلع الصليب من حول عنقي، وأضعه في يدها فتضمها حوله شاكرة، تستند على الباب لحظة ثم تخرج في اتجاه المحل المقابل.

في اليوم التالي عرفت أن نادية، الفتاة الطيبة السمراء الجميلة، قد ماتت، لكنني متأكدة أنها رحلت إلى حيث تنتمي حقيقة، جنة الرب.





ياسمين

كانت غرفتي زهرية..

اليوم بعد 5 سنوات ونيف، هذا أكثر ما أذكره عنها، غرفتي كانت زهرية اللون، زينت سقفها أنا وشقيقتي بالنجوم التي تتألق في الظلام، نرقد في المساء نتأملها ونحلم، أحلامًا تبدو مضحكة مقارنة بأحلامي اليوم، بعدما اختفت الغرفة الزهرية، والنجوم والسقف الذي يحمينا.

تسابقني ورد إلى بائع الذرة، نتناول منه كوبين، نلتقط الحبات الساخنة ونعود إلى بيتنا مسرعين، أمي تنتظر ككل يوم عودتنا لتوضيب المائدة، لا شيء يحدث في الحياة، لا شيء سوى شغف انتظار عودة أبينا الغائب دومًا في البحر، حتى مواعيد عودته لا نعرفها.



أذكر أيضًا أن رائحة الهواء كانت تختلف، هواء حلب معبق بشيء لا أعرفه، ربما لو شممته أنت لما شعرت به على الإطلاق، إنها هذه الرائحة التي تختصر الوطن، والتي تجعلك تشعر براحة ما، أنت آمن، حتى لو كان وطنك ضائع، كانت الثورة دائرة في شوارع سوريا، وكانت حلب في مأمن، لم ينزل أحد إلى الشوارع إلا بعض النازحين من أدلب في حي صلاح الدين، لكننا كنا بعيدين تمامًا، لم أدر أن ما أراه على شاشة التلفزيون يحدث في وطني، إلا عندما رأيت القلق باديًا على وجه أمي.

الحقيقة أنني أضحك اليوم عندما أتذكرني وورد وقتها، كان الأمر بالنسبة لنا مثيرًا للغاية، حتى أنني تمنيت سرًّا لو تنتقل هذه الأحداث إلى حلب، هذه الأمنية التي أندم عليها اليوم مائتي مرة، بعدما جاءت الثورة بأكملها إلينا في شهر رمضان من عام 2012.

مع أول انفجار يحدث في حلب، كانت أمي قد حسمت رأيها.

- علينا الرحيل مع الآخرين، لن أنتظر أن يتهدم البيت على رؤوسنا أكثر من ذلك.

كانت العناصر المسلحة تتوغل أكثر في حي هنانو، في الوقت نفسه الذي كنت ألملم فيه حاجياتي القليلة مع أمي وورد، أترك لعبي وكتبي الدراسية وألبومات



الصور، ونكتفي بالملابس وبعض الأشياء الثمينة التي حملناها في حقائب الظهر، لم تأبه أمي بشيء سوى الخروج وبأسرع طريقة من هنا.

نزحنا مع الجيران في سيارة صغيرة تكدسنا فيها جميعًا إلى طرطوس في رحلة قصيرة، لم يكن الوضع خطيرًا حينها، كانت مثل أية أسفار أخرى، فلم نشعر بفداحة الموقف، لم تسنح لي الفرصة أن ألقي نظرة أخيرة على مدينتي، أن أشم رائحتها، أمشي في شوارعها، أتأمل بناياتها الجميلة، أو أذهب للسوق القديم، لم تسنح لي الفرصة لتوديع بائع الذرة الطيب، ولا التقاط بعض من زهر الياسمين المزهر دومًا من شرفتنا، حتى النجوم في سماء غرفتي تركتها هناك، كنت أعتقد أننا سنعود، كنت قلقة على مَنْ سيسقي الورد، ومن سيطعم قطط البناية بعد الرحيل، اليوم أحمل نفسي الذنب وأسأل، هل يمكن أن يكونوا قد بقوا هناك، أسفل الركام، في انتظار الشمس مرة أخرى؟

وعلى الرغم من أن الأوضاع في طرطوس لم تكن سيئة، إلا أن أمي كانت قد اعتزمت الرحيل من سوريا كلها.

- نذهب إلى مصر، الإسكندرية حيث يعود أبوك دومًا.

كان أبي خريج الأكاديمية البحرية في الإسكندرية، مهندس بحري يجوب البحار طيلة العام بلا هاتف ثابت، ويعود إلى الميناء في الإسكندرية قبل عودته



إلينا، عرفت أمي على الفور أن مدينتنا سقطت ولن تعود الآن، وأبي أبدًا لن يتمكن من إيجادنا هناك.

ربما من الجيد أن أمي لم تنتظر، وقتها لم تكن هناك حاجة لتأشيرات دخول إلى ميناء الإسكندرية، التي نقلتنا إليها سفينة صغيرة تصل بين الميناءين.

تصل أمي إلى الميناء فتمر إلى مكتب المهندسين البحريين هناك، يعرف الجميع أبي لكنهم لا يعرفون ميعاد عودته، تسألهم أمي أن لا ينسوا إخباره بأن عائلته هنا في الإسكندرية، وأنها ستعود برقم هاتف قريبًا.

كانت الرحلة لا تزال مثيرة لي ولورد، نحن نسافر إلى بلد جديد، إلى مصر التي نراها في المسلسلات، ربما نرى أحمد السقا أو عمرو دياب هناك، نمشي في شوارع الإسكندرية التي لا تختلف كثيرًا عن شوارع طرطوس، والحماس يغمرنا، بينما تجرنا أمي ورائها والهم باديًا عليها.

تجلسنا على مقهى بينما تذهب هي للبحث عن مسكن.

السماسرة منتشرون في كل مكان لكننا نود مسكنًا مفروشًا ودائمًا ولمدة طويلة.

تعود لنا مع شاب نحيف يسير بنا مسافات طويلة داخل الشوارع الرأسية، نتوغل كثيرًا في قلب الإسكندرية، نبتعد عن البحر، وتبتعد رائحة سوريا شيئًا فشيئًا، نصل إلى سوق كبير مزدحم، خلف حاجز القطار الضخم، نصعد إلى



شقة صغيرة بلا منفذ إلا شباك على المنور، أكاد أصرخ في أمي بألا تقبل، لكنها تفعل ذلك.

تجلس منهكة على أحد الكراسي المحطمة بينما أدور أنا في الغرفة الصغيرة التي خصصتها لي ولورد كالمجانين.

تعلمت أن أعيش في هذه الغرفة ثلاث سنوات...

لم تلحقنا أمي بالمدرسة هنا، لم تفعل شيئًا سوى انتظار عودة أبي التي بدت كحلم بعيد لن يحدث أبدًا، كل يوم تذهب إلى الميناء علَّها تسمع عنه خبرًا، لا تعلم إن كان قد عاد إلى سوريا، أو ذهب إلى بلد آخر لا نعلم عنه شيئًا.

أجرب البحث عن اسمه على الفيسبوك بكل الطرق، أسأل في صفحات النازحين السوريين وبقايا عائلتنا المتناثرة بين تركيا والأردن ولبنان، بلا نتيجة، كانت أموالنا تنتهي، باعت أمي كل ما تملكه، حتى السلسلتين اللتان كانت تحيطان بعنقينا أنا وأختي، وتحمل اسمينا معًا، باعتهما في النهاية.

لم يكن هناك حلٌّ سوى العمل..

كان الأمر منتشرًا لم أبتكره، لكني أخذت الكثير من الوقت لإقناع أمي، تمنحني بعض النقود القليلة المتبقية، فأشتري بها كيزان الذرة النيئة من على الكورنش، أسلقها بنفسي، وأضيف على بعضها التوابل والملح، وعلى بعضها الآخر السكر



وماء الزهر، أدهنها بالزبد أو العسل وأغرس فيها عودًا خشبيًا رفيعًا، أغلفها بالبلاستيك وأرصها على المائدة الصغيرة التي وضعتها أمي أمام باب البناية، أقف أنا وورد بالتبادل عليها، يشتري منا المارون شفقة أو إعجابًا بشكل الذرة الغريب عليهم، أو ربما للتغزل في جمالنا الشامي كما يقولون بعباراتهم.

لا أقوى على الرد، أكتفي بهز رأسي مبتسمة، يملون عليّ طلباتهم فأجيب:

- تكرم عينك.

فتقهقه البنات فرحات بالجملة، ويسبل الشباب بأعينهم أكثر.

نكبر أنا وورد أكثر، تزداد الأصناف على مائدتنا بعدما قبلت أمي المشاركة، تعد بعض المخبوزات، والسلطات، ونغلفها بطريقتنا المرتبة في الأطباق البلاستيكية، أحيانًا أعد قائمة بالأصناف الموجودة، أو التي يمكن طلبها بحجز مسبق، أكتبها بيدي وأصور منها عدة نسخ لتوزيعها.

كنا في عمر السادسة عشر، توأم متماثل بالعينين الزرقاوين نفسها، والوجه الأبيض الهادىء، نعقد الحجاب بالطريقة نفسها فيحتار في التفرقة بيننا الجميع.

كانت ورد أميل للهدوء والتقبل، بينما كنت أنا أكثر عصبية واختناقًا.

نرقد على ظهرينا الآن نتأمل سقفًا مظلمًا بلا نجوم



- هل تعتقدين أن بيتنا قد تدمر؟

- بالتأكيد..ألا تشاهدين الصور على الفيسبوك؟

- وغرفتنا؟

- الغرفة جزء من البيت يا ياسمين

- لماذا لست حزينة؟

أنا في غاية الحزن لكنني أتوقف عن التخيل، وأحلم أننا يومًا سنعود لنجد كل شيء.

كنت أحلم بذلك أيضًا، لكنني أدرك أنه لن يحدث الآن، أختنق فأهرع إلى الكورنيش، أنظر إلى آخر البحر، علني أرى طرفًا من سوريا هناك، أشعر بالاختناق أكثر فأنسحب إلى البيت من جديد.

يقف أمامي كل يوم شخصٌ أو اثنان لتصويري أمام المائدة، أعلم أنهم يرفعون الصورة على الفيسبوك داعين الجميع للشراء من السوريين المساكين الذين يكسبون رزقهم من عرقهم، لا أرى هذه المنشورات عادة، فأنا أكون على الجانب الآخر منها، ينشر صاحبها الصورة في انتظار إبداءات الإعجاب والتعليقات التي ستنهال عليه، ولا ينسى ترك رقم هاتفه في يدي مع كلمتيّ غزل.



- كلك ذوق..

أردد كالآلى، بينما يبتعد شاعرًا أنه فعل ما عليه.

تهاجمني الكوابيس في المساء فأنهض مفزوعة، تهدئني شقيقتي بكلمتين وكوب ماء، أعود إلى النوم فأحلم بشوارع حلب التي تعد هناك، تهاجمني صور رمادية أراها في النشرات لبقايا مدينة لا أعرفها، أنساها شيئًا فشيئًا لكنها لا تغادر أحلامي.

لم يكن سهلًا على أمي أخذ قرار مثل ترك الإسكندرية، وتوديع فرصتنا في الالتقاء بأبي من جديد.

لكنها بدأت في التفكير بعد نصيحة العديد من السوريات بالنزوح إلى المحافظات الأصغر الأقل كلفة، كان ما نكسبه يكفينا بالكاد لدفع الإيجار وتناول ما يسد الرمق، بينما لا تتوقف أمي عن العمل يومًا واحدًا في الأسبوع، إلى جانب الأطعمة السريعة التي نبيعها، باتت تعد الطعام الجاهز لمن يطلبه، يأتي الزبائن لأخذه أحيانًا أو توصله هي بنفسها في أحيان أخرى.

في هذا اليوم، أرسلت أمي بورد إلى عنوان قريب على بعد عدة بنايات بالطلب.

كنت أقف في مكاني أمام المائدة عندما سمعت الصراخ قادمًا من بعيد، جريت



كما لم أجر وأنا أهرب من بيتنا في الحرب، كنت أدعي الله ألا تكون ورد، لكنها كانت هي، تشدها امرأة من حجابها في الشارع، وتنعتها بأبشع الألفاظ.

- الساقطة السورية تغوي زوجي.

يتجمع الناس شيئًا فشيئًا، بينما ألقي نفسي على ورد أحاول انتزاعها من بين يديّ المرأة، يخرج رجل ضخم من البوابة ليجذب امرأته لا يردد سوى كلمة فضحتينا.

تنظر إلي ورد ودموعها تغرق عينيها، بينما تنهال المرأة بالسباب علينا نحن الاثنتان.

- يودون سرقة رجالنا.. المشردات في الشوارع

تردد النساء الواقفات كلامها، يتفرجن علينا ونحن منهارات على الأرض، أحاول لف الحجاب على شعرها، بينما يضرب الرجال أيديهم كفًّا بكف، لا ينسى واحدٌ أو اثنان المعاكسة ومد اليد وسط كل هذا.

أنهض مع ورد لنعودا إلى المنزل.

تشيعنا شتائم المرأة واتهامات النساء، بينما ترفض ورد أن تقص عليّ ما حدث بالداخل.

أحاول أن أجعلها تحكي لي، ماذا فعل الرجل بك؟ هل لمسك؟ هل آذاكِ؟



تهز رأسها نفيًا بإصرار، تتوقف عن البكاء والكلام،لا تسألها أمي شيئًا، أمي لا تسأل، هي تنتظر فقط.

لم تتحدث ورد بعدها إلا نادرًا..

أما أمي فاكتفت بحزم متاعنا القليل والخروج ليلًا؛ بحثًا عن سيارة تنقلنا بعيدًا، إلى مدينة بلا بحر، بلا أمل لا في عودتنا ولا عودة أبي.

ربما كانت المدينة الجديدة صغيرة وخانقة، لكنها لم تفرق معي كثيرًا، أي أرض هي مجرد أرض ما دامت ليست أرض الوطن.

نبدأ من جديد رحلة البحث عن سكن، لا تنسى أمي السؤال عن محلات الذهب في المدينة لبيع آخر ما تملكه، محبس زواجها.

أنظر إلى عيني أمي وهي تتناول نقوده المعدودة التي خسف بها البائع الأرض، وأرى فيها ما تعجز عن قوله لنا منذ سنين، أتواطأ معها بالصمت، وأكمل الطريق للبحث عن شقة تضمنا.

كانت المدينة بلا بحر، لكنها كانت أكثر كرمًا من الإسكندرية.

يستقبلنا سكان العمارة المتواضعة بحفاوة غريبة علينا، حتى أن إحدى الجارات أرسلت لنا طعامًا معدًا كنوع من الترحاب.



- يبدو أنهم ناس طيبين.

تقول أمي وكأنها تزيح عن كتفيها همًّا، أوافقها الرأي وأجر ورد التي لا تزال تعاني من صدمتها جرًّا إلى غرفة جديدة تضمنا معًا، أحاول بكل الطرق إخراجها من حالتها، أدعوها للنزول والتعرف على المدينة، أحاول إضحاكها، أغني لها أغانيها المفضلة بلا مجيب.

- اتركيها قليلًا وستتحسن..

تنصحني أمي وتصمت ثانية، كنت أنت قد تحسنت يا أمي، أشعر أنني أعيش مع امرأتين مكسورتين وأعجز عن إصلاحهما، أنسى أنني أنا نفسي في حاجة لإصلاح.

تعاود أمي مهامها في إعداد الطعام السوري، بينما أتولى إعداد صفحة على الفيسبوك، وكتابة قائمة صغيرة أطبعها في محل مجاور تديره فتاة اسمها رضا.

تنصحني رضا بتوزيع الورقة في مركز التجميل المقابل.

- العاملون سيشترون منك كل يوم، معظمهم يبتاع طعامه جاهزًا.

أشكرها على نصيحتها، وأنظر إلى المحل الفخم، يسمونه الباشا بيوتي سنتر، وتسميه رضا الكوافير.



أدفع الباب الزجاجي بحذر، أخطو إلى الداخل، تفزعني ضخامة المكان وازدحامه، الجو المعبق بأبخرة السشوار والروائح النفاذة تخترق أنفي.

يسألني شاب يرتدي بذلة وقميص وربطة عنق عما يمكنه تقديمه

- أريد توزيع قائمة طعامنا هنا،.هل تسمح لي بذلك؟

يبتسم سائلًا أنت سورية؟

أوميء برأسي بالإيجاب، يتناول مني الأوراق ويقول:

سأوزعها بنفسي، ما اسمك؟

- ياسمين.

- حسنًا يا ياسمين، سأوزعها وسأكون أول الزبائن أيضًا.

- كلك ذوق..

أعود مسرعة إلى أمي، أحكي لها عن إنجازي الصغير، تبتسم بلا جواب، أدخل إلى ورد لأحكي لها عن المحل الضخم المدهش، تستمع إليّ دون تعبير.

- ربما علينا مساعدة أمي إذن..

- بالتأكيد، لن نلاحق على الطلبات.

أقول بتفاؤل أود نقله إليها، لكنها تهز رأسها بصمت.



كان مستر وليد كما عرفت اسمه فيما بعد صادقًا في وعده، لم تمر ساعة إلا ورن هاتفي معلنًا عن أول طلبات الكوافير.

من وقتها وأنا أدخل وأخرج محملة بالوجبات لجميع العاملين، حتى الباشا.

العالم داخل الكوافير يختلف عن خارجه، كنت مبهورة، أدخل من الباب الزجاجي فأنفصل عن ما هو خارجه، أنسى الحرب، والغربة، وأنسى صمت أمي وأختى الدائم، أنسى غرفتي الزهرية وكتبي وألعابي ونجماتي، أنغمس كليًّا في متابعة السيدات الجميلات بالداخل، وهن يصففن شعورهن، تسمح لي جيجي بالجلوس جوارها وهي تضع المكياج للعرائس، حتى الباشا يسمح لي بمشاهدته وهو يثبت التاج والطرحة، يرش السبراي المثبت، يثني الخصلات بسرعة حول بعضها، يضفرها، أو يلفها على شكل كعكة عالية، يبتسم لي برقة، يتعاطفوا جميعًا معي، ويشتروا أكثر مما يحتاجون، فقط للمساعدة.

أما نادية فكانت تجلسني معها في غرفة السيدة منى، تطلب مني دائمًا 4 حبات من الكبة وسلطة خضراء، تجلس بجواري لتأكلهم بصمت، تناولني حبة كبة، فأتناولها شاكرة، السيدة منى منشغلة دومًا، لكنها تلقي عليّ السلام برفق، وتدخل لتكمل عملها.

عندما بدأت نادية في الحديث معي بالشامية، لم أستوعب ما تقول، كنت قد



تعودت على اللهجة المصرية خارج البيت حتى أتقنتها، كانت الشامية تبدو منها وكأنها خارجة من مسلسل هندي أو تركي مدبلج

- هل تتحدثين الشامية؟

• نعم

- لماذا؟

• لماذا ماذا؟ عشت هناك كثيرًا..

- لست مضطرة..

• أود ذلك

لكنني لم أكن سعيدة بذلك، كان الحديث معها يبدو غريبًا على مسمعي، في البيت الصمت كان الغالب على ثلاثتنا، وفي الخارج، كنت أستخدم الشامية بحساب ولأهداف تجارية بحتة، أعرف كيف ألقي بكلمة تجعل الزبائن يسعدون، أما نادية، فقد ذكرتني بأيام بعيدة، أثارت في جسمي قشعريرة، حنين ما جعل قلبي ينقبض، دوار عصف برأسي وجعلني أنهض سريعًا.

أخرج من الكوافير مسرعة، أتجه إلى محل رضا لشراء علبة مياه غازية قبل العودة إلى المنزل، تسألني رضا عما دهاني، فأجيبها بأنني بخير.



تطلب مني الجلوس قليلًا لأن وجهي شاحب.

تلحق بي نادية هناك.

- هل ضايقتك؟

• لا، لكنك ذكرتِني بالشام، وأنا لا أود التذكر.

- هل ينسى أحد وطنه؟

• أنا أود النسيان، فلا أمل في العودة.

- بالتأكيد هناك أمل.

أنظر لوجهها المبتسم دومًا، كانت غريبة، هذا الود المبالغ فيه يشعرني بالتوتر، أشكرها على مشاعرها الطيبة، وأتناول المياه الغازية من رضا لأعود إلى المنزل.

صمت طويل..

لا شيء يحدث في هذا الفراغ الذي أسبح فيه طيلة الوقت، سوى إعداد الوجبات، تحضيرها ولفها بالورق الشفاف، تقف أمي في المطبخ، تشاهد المسلسلات وهي تعد الطعام، بينما تجلس ورد في الغرفة، تتأمل اللاشيء من الشباك، أو تقرأ الكتب التي آتيها بها من سور الكتب القديمة القريب الذي اكتشفته منذ فترة.



أدخل كل نصف ساعة لأطمئن عليها، أذكرها بشرب بعض الماء، أو تناول الطعام، توافق مرة وترفض مرتين.

وأنا مجرد فتاة صغيرة، لم أتجاوز السابعة عشر بعد، كنت أشعر أن هذا الحمل كثير عليّ، أنام على ظهري لأتأمل السقف الخالي من النجوم اللامعة، وأفكر أنني أبذل كل جهدي، لم أقصر في شيء، أو هل قصرت؟

الإجابة عن سؤالي كانت قريبة جدًا

لماذا يا ورد فعلتِ هذا؟

كيف استطعت أن تتركيني بهذه البساطة؟ لقد أتينا معًا إلى هذا العالم، وكان ينبغي أن نرحل معًا، من غير المعقول أن يموت أحد التوأمين قبل الآخر بهذه البساطة، من المفترض أن أشعر بكِ، كان من المفترض أن أستيقظ وأن أنقذك، كان من المفترض أن أفهم أن هذه ليلتك الأخيرة.

تندسين إلى الفراش بجواري وأنا ألهو بهاتفي المحمول غير عابئة، كنت أحاول للمرة المليون البحث عن اسم أبي على الفيسبوك بلا جدوى، وأنت تنظرين لي فقط وتبتسمين.

تحيطيني بذراعك فأزيحه برفق، أطلب منك الابتعاد قليلًا لأنني مشغولة.



مشغولة بِمَ؟ كيف لم أفهم أنك كنت تحضنيني للمرة الأخيرة؟ كيف لم أفهم أنك تعرفين؟

لماذا لم تخبريني بما حدث لك في هذا اليوم المشئوم في الإسكندرية؟ وكيف تكونين بهذا الضعف يا ورد؟

تقتلك كلمات امرأة حمقاء؟ غارت على زوج لا يساوي شيئًا؟ أم قتلتك الغربة؟ أم فقدان كل شيء؟ أم ماذا؟

كنت أعتقد أنك لا تبالين؟ أنك لا تشعرين بالمصيبة التي نحن فيها، لكنني اكتشفت أن الوحيدة التي لا تشعر هي أنا.

أستيقظ من النوم لأجدك بجواري لا تتحركين، باردة للغاية، مبتسمة وكأنك أخيرًا وصلت إلى ما تبغينه.

أهزك برفق وشفتاي ترتعشان، أهزك أكثر ولا جدوى.

ورد

لا تردين

ورد..أرجوك

كيف تتركيني يا ورد؟ وماذا أقول لأمك؟



أجلس بجوارك هكذا لكم من الوقت؟ ساعة..اثنتان..ثلاث، لا أعرف..يمر الوقت دون أن أدري، لا أشعر سوى بذراعي أمك على كتفي، تجلس بجواري دون كلام، لم تبكِ هي الأخرى، ولم تنطق بأية كلمة من يومها..

تولى الباشا كل شيء، إجراءات الدفن، وشهادة الوفاة، والتغسيل.

تلتف الفتيات العاملات في الكوافير حولي، يحاولن حثي على الكلام أو شرب بعض الماء، لكني كنت أجد أن التنفس نفسه فعل شديد الصعوبة.

تختفي ورد أسفل التراب، في أرض غريبة لا نعرفها، على بعد آلاف الأميال من أرضنا.

يختفي نصفي تحت التراب فأشعر بفقدان التوازن، وكأنني أسير بساق واحدة، وذراع واحدة، وأرى بعين واحدة.

تجلس نادية بجواري طيلة الوقت، تمسك بيدي، تسقيني بيدها، تزورني كل يوم، تصر على إطعامي، الغريب أنها كانت تشعرني فعلًا بالتحسن.

تتوقف أمي عن فعل الحياة، تجلس ساهمة طيلة النهار، أدس في فمها بعض الخبز باللبن أو الشوربة، أسقيها الماء بالشفاط، أحملها حملًا في المساء إلى السرير، أحملها إلى الحمام أحيانًا، أو إلى المسبح لتحميمها بعد أن فقدت السيطرة على نفسها.



كانت الحياة تزداد قسوة، لم أكن قادرة سوى على سلق بعض أكواز الذرة وبيعها أمام المنزل مثل السابق، فقط لشراء بعض الطعام، أما الإيجار فكان يتراكم عليّ دون حول مني ولا قوة.

حتى هذا اليوم الذي استدعاني فيه الباشا إلى مكتبه..

أقف أمامه بصمت، لا أعرف ما الذي يريده مني الآن، لم أعد قادرة على مدهم لا بالوجبات ولا أية خدمات أخرى، لكنه يعرض عليّ أمرًا آخر.

- ما رأيك لو تعملين معي، هنا في الكوافير..

• أعمل؟ في أيّ شيء؟ أنا لا أجيد لا تصفيف الشعر ولا وضع المكياج.

- أفكر في عمل قسم خاص للعناية بالبشرة والجسم، بالتأكيد سيكون له وقع أجمل على العميلات لو وضعنا بجواره «على يد الخبيرة السورية».

• لكني لست خبيرة...

- لا يهم، سأعلمك، لن يستغرق الأمر يومين، إنها أقنعة جاهزة، تطبقينها على وجه العميلة، مع بعض التدليك والمساج بحركات بسيطة، أنت ذكية ستتعلمين بسرعة.



أنظر إلى وجهه بتردد، لا أعرف ما الذي أقوله.

- اسمعي يا ياسمين، أنت بحاجة للأموال، دخل ثابت وجيد سيعيشك أنت وأمك، إلى جانب الإكراميات التي ستمطرك بها العميلات، ثقي بكلامي أنا أود مساعدتك أولًا وأخيرًا.

كان العرض مغريًا..على الأقل أفضل من أن ألقى في الشارع أنا وأمي بعد شهور من عدم دفع الإيجار، وشهور من تناول الخبز بالحليب.

- ها، ما رأيك؟

أوميء برأسي بالإيجاب بتردد لا يزال باقيًا، لكنه ينهض مسرعًا بحماس ليقف بجواري، يربت على ظهري، برافو يا ياسمين.

لكن، ما رأيك لو غيرنا اسمك، ياسمين منتشر في مصر، أود منحك اسمًا له وقع شامي، سولاف مثلًا؟

أتمتم بخفوت، أو ورد؟

- ورد، أوكي لا مانع.

الخبيرة السورية ورد للعناية بالبشرة والجسم.

يبدأ الباشا من فوره في التحضير لإعداد القسم الجديد في الكوافير، أذهب كل



يوم للتدريب، الذي لم يكن صعبًا بالفعل، أشاهد العديد من مقاطع الفيديو على اليوتيوب وحدي دون أن يطلب مني، الأمر الذي يسعده بشدة، يمدحني كثيرًا أمام الجميع.

يسألني عن اللون الذي أرغب فيه لطلاء الغرفة، أقول بلا تردد، الزهري.

أدخل إلى غرفتي أخيرًا بعد الانتهاء منها، وكأنني أدخل إلى بيتنا في الشام، كانت مصممة على شكل البيوت السورية العتيقة.

فروع خضراء متدلية من السقف، كرانيش وآرشات دائرية، وفي المنتصف مائدة نحاسية عليها فناجين من القهوة، حتى مصفاة «المتّى الحلبية» وفنجانها وشفاطها موضوعين عليها، لا أدري من أين أتى بها الباشا.

شيزلونج طويل موضوع لتتمدد عليه النساء، والحيطان باللون الزهري كما طلبت، أما السقف، فتم لصق النجوم الفوسفورية عليه لتتأمله النساء وهن راقدات.

كان قلبي ينبض بقوة، أقف أمام المرآة المذهبة الطويلة التي تحتل جدارًا كاملًا، أرى ورد فيها تنظر إلي، وتبتسم.

أرأيت يا ورد، لقد عدنا إلى الشام..



ألمسها بأطراف أناملي، فيستبد بي الحنين أكثر، يطرق الباشا عليّ الباب، يقول أول زبونة.

تدخل وتدخل معها نادية لمساعدتي.

تتوالى الزبونات وتتوالى الأيام، أدخل كل صباح إلى عالمي في الشام، وأخرج في المساء إلى عالم آخر لا أعرفه، أعود إلى البيت حيث تجلس أمي، أطعمها بعض اللقيمات، أحممها وأجلسها بجواري لبعض الوقت حتى تنام.

الحياة تسير، لكنني متعبة، أشعر بعدم التوازن، لا أمل من البحث عن أبي كل يوم على الفيسبوك، أترك رقم هاتفي مع أي شخص كان يعرفه ربما سأل علينا يومًا، يختفي الأمل رويدًا رويدًا، لكنه لا ينتهي تمامًا، أفكر أنه ربما يعود فتعود أمي إلى الحياة، ربما يعود فنعود جميعًا إلى بيتنا، ربما يظل بيتنا صامدًا أمام الهجمات والصواريخ، ربما تخطئه كل القنابل، ربما يظل منتصبًا وحيدًا تسكنه القطط الصغيرة والعصافير واليمامات، يحتمين في غرفتي الزهرية من الرماد والدخان والنيران وصوت الرصاص.

الجميع من حولي يعتبرونني مشروعًا محتملًا، يتودد لي الأولاد في الكوافير، يتعاملون معي باعتباري عروس لقطة، بالتأكيد قرأوا منشورات الفيسبوك التي تنتشر كالنار في الهشيم، عن مدى روعة العروس السورية، عن طاعتها



لزوجها، وكيف أنها لا تكلف مليمًا، أن السوريات يتلهفن للزواج من مصري، للحصول على الإقامة الدائمة، ووطن جديد، بدلًا من التشرد في الشوارع، يسخرون من بنات وطنهم، ويعددون في جمال بنات الشام، شعرنا الناعم وعيوننا الملونة، وجمال طهينا ورقتنا في الفراش، يتساقط لعاب الرجال، وينظرون لي كدجاجة مزينة يتصاعد منها طيب الرائحة.

أو كما فعل الباشا، مشروع تجاري مربح.

السوريون جاءوا ليسرقوا قوت المصريين، عباقرة في التجارة، يتسرسبون من كل شق، يقيمون محلات الشاورما، والمطاعم الشامية، يبيعون الهواء بكلماتهم المعسولة، يعملون في مراكز التجميل، مثلما قال، تكفي كلمة خبيرة سورية لتتوافد النساء، حتى لو لم أكن أفقه شيئًا في عالم التجميل، أنا دليل حي على ذلك.

لا أحد يتكلم عن ضياع الوطن، عن انكساري الشخصي، عن رحلتي الصامتة من غرفتي إلى مدينة لا أعرفها، عن الفراغ التام في قلبي، عن فقداني في لحظة واحدة لعائلتي كلها، عن ضياع ألبوم الصور، وحكايات الحب الأولى، وخربشات نقشتها أنا وورد على مقاعد المدرسة في المرحلة الابتدائية، وظننا أنها باقية للأبد، كل هذا دليلٌ على مرورنا العابر من هنا يومًا.



عن خطواتنا الأولى، عن ملابس أول عيد احتفظت بها أمنا في صندوق صغير أسفل السرير، عن علبة مغلقة أسميتها الأرشيف، تحوي وردًا مجففًا أشتريته في الطريق للمدرسة، وكتيب صغير ضم كلمات ساذجة كتبتها لي رفيقاتي في نهاية عام دراسي، وتذاكر الباص المقطعة، وريشة حمامة هبطت يومًا على كف يدي وأنا أصلي في المسجد الأموي، وطرف من ثوب أمي الذي تمزق بلا أسباب، فقصقصته قطعًا صغيرة لتصنع منه عرائس قطنية لي ولورد، احتفظت أنا بأقصوصة منه تحمل عطرها.

هل يعرف أحد التاريخ الإنساني لسكان سوريا؟

التاريخ الشخصي لكل فرد من أهل حلب؟

التاريخ السري لكل فتاة ترعرعت في هذا التشتت والتمزق والغربة الإجبارية؟

نحن جيل تربى على الألم، فكيف نحيا؟ ولماذا؟ وكيف نحلم بالعودة إلى وطن لم يعد يعرفنا؟ وكيف نعيش في وطن لا نعرفه؟

تنام أمي فتضيق بي الدنيا، يختنق صدري وأشعر بالرغبة في البكاء، أنزل إلى الشارع المظلم، كانت رضا لا تزال فاتحة أبوابها، أتجه إلى المحل المضيء، أجلس على الرصيف المرتفع أمامه، تأتيني بخطوات عالية.



- ما الذي جلبك في هذه الساعة، ألم تسمعي عن الانفجار؟
• أريد علبة مياه غازية، والانفجارات لا تخيفني
- تناولني إياها في يدي بصمت، باردة جدًا، أفتحها بسرعة وأخذ رشفة كبيرة.

أراها قادمة من الكوافير المفتوح المظلم، نادية التي تنام فيه كما أعلم، تفتح الباب ببساطة وتخرج، تخرج من خلفها العاملة أم لوسيندا مع طفلتها الجميلة، تحضن نادية بشدة، تحمل طفلتها ثم تذهب في الاتجاه المعاكس، أتعجب بقاءها لهذا الوقت معها في الكوافير وحدهما، تستند نادية لحظة على الباب الزجاجي وكأنها تستجمع قواها، ثم تأتي في اتجاهي، تجلس بجواري على الرصيف، وترفع رأسها تتأمل النجوم اللامعة في السماء.

- هل تفتقدين وطنك؟
• أفتقد ما كنت عليه في وطني.
- انظري إلى السماء، إنها نفسها التي كنت ترينها هناك.

أرفع رأسي لأرى ما تتحدث عنه، حتى السماء هنا تبدو مختلفة.

- لا، ليست كذلك، إنها مختلفة، الهواء مختلف، والنجوم مختلفة، شكل الأرض مختلف.



- فقط إن أردت رؤيتها كذلك.

أنظر إلى نادية بحدة، تبدو متعبة بشدة، تجاعيد قوية تغزو وجهها، حتى شعرها يبدو مختلفًا، وكأنه مثبت على رأسها، وكأنه مائل بشكل ما.

كان الجميع يتحدث، وكنت أسمع ما يقولونه عنها، ولم يكن هناك داع لإخفاء هذا أكثر.

- لماذا لم تنقذي ورد؟

• ماذا؟

- لا داع للإخفاء، الكل يتحدث، جيلان، رضا، حتى منى تتحدث.

تصمت نادية دقيقة، تطرق برأسها أرضًا.

- أنت تتعاطفين معي، تمسكين بيدي وتطعميني، تقولين إنك صديقتي، لكنك تركتيها تموت، ورد هي أنا، وأنا هي ورد، لقد مت يوم ماتت ولم تنقذيني.

• لقد انتهت حكاية ورد، لم يكن هناك ما يمكن فعله، أما أنت، فحكايتك لم تنتهِ بعد.

- لا، أنا انتهيت فعلًا.



تمسك بيدي، تنظر إلى عيني مباشرة، أنت ياسمين، لا تنسِ ذلك..

- لا تفعلي.

لكنها كانت تفعل ما تفعله دومًا، لم أرد أن تنتزع الحزن من قلبي، كنت أريده أن يظل، أريد أن تظل ورد في قلبي لكنها كانت تنزعها بقسوة.

- أنت لا تفيديني هكذا..

صدقيني أنا أفعل، قصتك لم تنتهِ بعد..

- أنا لا أريد..

- وأنا لم يعد لدي المزيد من الوقت..

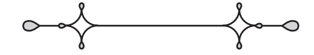
أحاول نزع يدي من يدها لكنها تتشبث بها أكثر، أبكي، لأول مرة أبكي منذ موت ورد، أشعر بها تخرج مع دموعي، أبكي وأشهق فأتحرر، أشعر أنني أتنفس من جديد.

تظل ممسكة بيدي أكثر، أنظر إليها فأجدها تبكي معي، كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها نادية تبكي، كانت تبكي بلا صوت، وبلا تعبير، دموع غزيرة تغرق وجهها، تنعكس الأضواء عليها ببريق ساطع فتبدو كالنجوم، كان وجهها يعكس نجوم حلب كما أتذكرها، كان وجهها في هذه اللحظة هو الوطن.



أثبت عيني على وجهها مشدوهة، أتوقف عن البكاء أخيرًا فتترك يدي، أحاول الإمساك بها لكنها تنهض وتتركني، تعود إلى الكوافير المظلم بخطى متعثرة، تستند دقيقة على الباب الزجاجي قبل أن تدخل وتغلقه ورائها.

كانت هذه هي الليلة التي لحقت فيها نادية بورد..



فلك

في يوم واحد، يفرغ البيت عليكِ وحدك، تنظرين في المرآة فتكتشفين أن السنين تركت آثارها على وجهكِ وشعركِ وجسمكِ، وأنّك لم تعودي أنتِ.

هناك سيدة عجوز لا تعرفينها تنظر إليكِ.

لا الملابس عادت تناسبك، ولا الذيل حصان الذي تصرّين على عقده عاليًا كما كنتِ تفعلين طيلة عمرك، يليق عليكِ.

أتناول حقيبتي وأغلق الباب خلفي جيدًا.

أتأكّد مرتين أنّني أدرت المفتاح مرتين قبل أن أخرجه وأضعه في الحقيبة.

أدفع الباب مرّة أخرى لأتأكّد من أنّه محكم الغلق، ثم أنزل درجات السلالم ببطء وأنا أستند إلى الدرابزين.



أسير في الشارع فينظر إليّ الجميع، أرتدي كما كنت أرتدي طيلة عمري، جيب قصيرة وتوب ملونًا زاهيًا، وحذاء بكعب عالٍ.

أعقد شعري على شكل ذيل حصان، وأضع عطرًا فاقعًا.

لا أتوقّف حتى أدخل من باب الكوافير القريب من المنزل.

أزور الكوافير مرّة كل شهر لصبغ شعري، لا أحتاج إلى ترديد ما أريده، فالجميع يعلم طلبي، أجلس على أقرب مقعد دون سؤالٍ.

لا يجرؤ أحد على جعلي أنتظر دورًا.

يقترب منّي الباشا مرحبًا، ويشير لأحد العاملين ليبدأ العمل على شعري بسرعة.

يعرفون اللون المطلوب؛ الأشقر الزاهي ولا شيء سواه، لون شعري الأصلي قبل أن يتحوّل إلى الرمادي الكئيب.

أجلس نصف ساعة انتظارًا لغسل الصبغة، لا أحب أن يغسل لي شعري سوى الفتاة السمراء الضئيلة، نادية، أرفض أن يمسه أحد غيرها، فيسرعون في تلبية أوامري حتى لا ألقنّهم درسًا قاسيًا بلساني السليط، الباشا نفسه كان طالبًا لدي في المدرسة الابتدائية.

لا يزال يناديني باسم مِس فلك.



تنتهي نادية من غسل شعري، تدلكه ببطء، أحبّ كيف تخلّل أصابعها في خصلاته وكأنّها تمشّطه برفق، تسألني هل أنتِ مرتاحة يا مِس فلك؟ هل الماء دافئ؟ فأجيبها بنعم.

تجفّفه بـ «السشوار» قليلًا، فأنهض فورًا.

لا أحبّ المكواه ولا أجعلها تلمس خصلاته، أتركه كما هو وأعقده ذيل حصان من جديد، ثم أُخرِج قلم الروج الأحمر من حقيبتي.

ترتعش يدي قليلًا كما تفعل منذ سنوات، فلا أهتم.

أمرّر القلم على شفتيّ، يخرج اللون عنهما بعض الشيء، لكنّي لا أبالي، النتيجة ترضيني في النهاية وهذا ما يهمّ.

أخرج بضعة جنيهات من الحقيبة، أضعها في يد نادية التي تتناولها شاكرة، تمُدّ يدها لمسح الروج الخارج عن حدود شفتيّ لكنّي أمنعها.

- هل تعدّلين عليّ يا حمقاء؟

- بالتأكيد لا يا مِس فلك.

لا يقبل الباشا أخذ مقابل منّي، هذا واجبه تجاهي كمعلمته القديمة.

لا أعتبرها صدقة ولا إشفاقًا، بل هو حقي الكامل.



أغادر الكوافير وأنا أرفع رأسي عاليًا، أسمعهم يتهامسون في طريقي للخروج.

تفلت من إحدى السيدات الجالسات ضِحكة مكتومة، لا أنظر باتجاهها.

تعوّدت على مشاعر الغِيرة من النساء طيلة عمري. يحسدونني على جمالي، وعلى قدرتي على فعل ما أريده وقتما أريد.

كان أبي هو بطلي الحقيقي..

يشجعنّي دائمًا على اتّخاذ قراراتي بنفسي، يصحبني معه إلى مقر عمله كمدير حسابات شركة خاصة لتوريد أدوات الصرف الصحي.

يجلسني على مكتبه ويجلس هو بجواري على كرسيّ منخفض ليخرج أوراقه.

أدور بكرسيه الجلدي العريض وأنا سعيدة، يتنبّأ لي بأنّني سأكون ذات شأن عظيم.

- أنت يا فلك بمائة ولد..

كنت طفلته الوحيدة، لم تنجب أمّي من بعدي لأسباب لم يستطع الأطباء علاجها، لكنّ أبي لم يحزن، لقد منحني كل حبّه، فلم يعد في حاجة لأطفال آخرين.

يقول منذ أن وضعتك الداية بين يديّ، وأنا أعلم أنّك كل حياتي.



يعلّق لي والدي في غرفتي لوحة خطٍ عربي، «كلٌّ في فلك»، رسمت حروفها في دائرة متّصلة.

يخبرني بأنّ الآية تُقْرأ من اليمين إلى اليسار والعكس.

- اسمك يا فلك مميّز ورائع، أنت كُلّك مميّزة، لا تدعِ أحدًا يقنعك بالعكس.

أكبر وأنا أشعر بفرادتي.

كانت أمّي سيدة طيّبة، تتبع أبي في كل ما يقوله.

لم تكن تغادر المنزل إلا لمامًا، أمّا أنا، فكنت أصحبه دائمًا.

يجلسني معه على القهوة، يأخذني لزيارة أصدقائه، يشتري لي أجمل الفساتين.

تضفرّ لي أمّي شعري الأشقر ضفيرة طويلة، تتفاخر بشفتيّ الحمراوين، وعيني الملونتين برموشهما الطويلة.

أمّا أبي فيفخر بإنجازاتي في كل مكان، أنجح في المدرسة بدرجات ممتازة، فيبروز الشهادة ويعلّقها على حائط الصالون بفخر، أحصل على شهادات تقدير بسبب رسوماتي في المدرسة، فيطير بي زهوًّا.

يحرص على حضور الاحتفال الذي أتسلّم فيه مصحفًا صغيرًا وميدالية مفاتيح على سبيل الجائزة.



لولا أبي لكنت معتادة، لكنت أنهيت دراستي الجامعية، وتزوّجت وأنجبت أطفالًا يحيطون بي هم وأطفالهم الآن.

لكنّي بسببه أسير وحدي في الشارع عائدة إلى المنزل الفارغ.

أفتح الباب فتهبّ عليّ رائحة القِدّم؛ الرائحة التي كنت أشمّها في بيت جدّي قديمًا، صارت الآن رائحة بيتي، رائحتي أنا، التي أحاول التغلّب عليها بالعطور الفاقعة.

أقف أمام صورته التي توسّط شهاداتي المدرسية وشهادة تخرّجي في كلية النوعية وأهمس:

- الله يسامحك يا بابا..

بدأت الاهتمام بأنوثتي في وقت مبكر؛ في الثانوية العامة.

أبدأ في ارتداء الفساتين القصيرة، ثم أتطوّر في الجامعة إلى التنانير القصيرة والتوبات الضيّقة المفتوحة.

لم يمانع أبي كما ظننت أنّه سيفعل، على العكس، تركني أختار ما أريده بحرية، أرتدي ما أريد، وأعقد شعري ذيل حصان طويل، حتى أنّني أضع المكياج بلا أيّ لوم.



- أنت امرأة حُرّة، وأنا أثق بكِ، افعلي كل ما تريدينه، لا أحد يستطيع أن يمنعك.

أمّا أمّي فكانت تنصحني سرًّا بألاّ أستمع إلى أبي. أجلس في حجرتي بينما تنظّم هي لي خِزانة ملابسي.

ترتّب القطع وتطويها وتضعها فوق بعضها بعضًا، ثم تنظر إليّ:

- الناس يتحدّثون، يجب أن تراعي أنّنا في مدينة صغيرة، البنت لبيتها وزوجها.

- لكنّي لا أريد الزواج الآن، أريد التخرّج والعمل.

- وبعد ذلك؟ الزواج طبعًا..

أضحك على تفكير أمّي المحدود، أخبر أبي بما قالته ونحن نشرب الشاي في الشرفة، فيقهقه:

- أمّك محدودة الذكاء، ليست مثلك، أنت أفضل من أيّ أحد.

أتيه فخرًا برأي والدي فيّ، لا أخذله قط، أنتهي من الدراسة الجامعية بتقدير ممتاز، وأستعدّ للتعيين في الجامعة.

لكن هذا لم يحدث قط، يتمّ تعيين ابنة أستاذ كبير في الجامعة شاء حظي أن تكون



معي في العام نفسه والقسم ذاته، وأمام هذه الحقيقة الواحدة، تصبح كل كلمات والدي لي فجأة بلا معنى.

أنا لست أفضل من أيّ أحد، هناك من هم أفضل مني باسمهم، وبنفوذهم، وبعائلاتهم.

يكاد أبي ينفجر غيظًا، يخبرني بأنّه سيصلح هذا الخطأ مهما تكلّف الأمر.

تشتعل في نفسي شُعلة من الأمل.

كانت وعود أبي دائمة التحقيق، كنت أراه قادرًا على فعل أيّ شيء لي، أنتظره بلهفة بعد أن يقرّر الذهاب بنفسه إلى الكُليّة، ومواجهة العميد بالتلاعب الحاصل، فلا تسمح له السكرتيرة بالدخول.

يعلو صوته مطالبًا بحقّه وحقّ ابنته، فيخرج العميد من مكتبه، ويكون الردّ عليه هو الطرد.

يُطرد والدي من مبنى الكلية، ليعود إلى البيت متهدّل الكتفين.

أسأله عمّا حدث فلا يردّ.

يخبر أمّي بأنّه يرغب في النوم قليلًا، تتبعه إلى الغرفة فيخبرها بما حدث، تتركه لينام وتخرج لتطلب منّي ألاّ أسأله مجدّدًا.



بعد أسبوع مات أبي..

كان جالسًا على مقعده المفضّل أمام التليفزيون، بينما تجلس أمّي على الأريكة تقشر حَبّات البطاطس لصنع البوريه الذي أحبّه للعشاء.

أجلس بجوارها، نشاهد جميعًا مسرحية مكرّرة لعادل إمام، ونضحك.

أذكر أنّني كنت أستدير لأخبر أمّي بشيء تافه عندما رأيت رأسه يميل فجأة ليغادر العالم..

دون أن يقول شيئًا ذهب، دون أن يخبرني حتى بما يشعر..

هكذا انكسر أبي فلم يصلحه شيء.

عطب الروح يحدث من كلمة واحدة، من فعل واحد، من موقف، ربما يمرّ مرور الكرام وقتها، لكنّه يظلّ هناك كامنًا، ليخرج هكذا، في ميلة رأس على عنق، في موت مفاجئ.

لم أكن شهدت موتًا من قبل، كان كل شيء غريبًا عليّ، أرتعش وأنا أهزّه بقوّة، أدلّك صدره، أحاول صبّ الماء بالسكر في حلقه.

كانت أمّي تصرخ بجواري، وأنا فقط أنادي عليه.

بابا، بابا، بابا، أرجوك أفق، من أجلي.



لم يُجبني قط، عندها أدركت أنّه لن يفيق، وأنّنا امرأتان عاجزتان تحيطان به دون مُعين، خرجت إلى سلالم العمارة، أطرق بيديّ على كل باب دون انتظار.

أطرق على أبواب العمارة كلها، أريد عونًا، أريد منقذًا..

كان الجميع يخرج متسائلًا عما يحدث، نظرة واحدة إلى وجهي الأصفر وارتعاشة جسدي كانت كفيلة بأن يركضوا باتجاه باب شقتنا المفتوح.

أعود إليها لأجد حشدًا من الرجال والنساء حول أبي.

كان الرجال يحاولون مثلي إفاقته، لكنّه كان قد ذهب.

تقترب منّي إحدى الجارات وهي تبكي، تقول: شِدّي حيلك، فأرتعش أكثر.

يتولّوا المساعدة في كل شيء.

كانت أمّي بائسة مثلي تمامًا، تجلس في ركن الصالة التي خلت من الأثاث، بعد أن كوّمته الجارات في حجرة ما لاستقبال المعزّيات في الصالة المفروشة بالحصر، بينما صَفّ الرجال الكراسي الخشبية بالأسفل، على سبيل الصوان الصغير.

يأتي الموت فجأة لينتزع من نُحبّهم من وسطنا قبل أن نخبرهم بكل شيء.

أفكر في عشرات الأسئلة التي كنت أريد طرحها على أبي، في عشرات الجمل التي كنت أريد أن أخبره بها، في الاعتذار له عمّا حدث، وبأنّني لا أودّ التعيين في الجامعة من الأصل، وأنّ سعادتي بتقديره لي أهمّ من سعادتي بتقدير العالم كله.



لكنّي لم أقل شيئًا، سمعت كلام أمّي ولم أحدّثه في الأمر، رغم أنّني كان عليّ ذلك.

كان عليّ أن أنفذّ ما أريد كما نصحني دومًا، لكنّي لن أنسى وصيته مجدّدًا.

لن أنساها وأنا أقرّر العمل في مدرسة خاصة ابتدائية بعقد خاص دون انتظار التعيين الحكومي.

تخبرني أمّي أنّني سأفصل بعد عام، لكنّي لا أبالي، كنّا في حاجة لأموال إضافية فوق ما يأتينا من معاش أبي الذي تتضاءل قيمته بمرور الأيام.

في الواقع أستمر في العمل فيها خمس سنوات كاملة بعقد خاص قبل تثبيتي أخيرًا.

كنت أُعلّم الأطفال الرسم الذي أحبّه.

كان الأولاد ينظرون لي ساهمين طيلة الحِصّة.

يرسمون لي مع لوحاتهم قلوبًا وزهورًا، ويرسلون جوابات غرامية بدون أسماء.

تتوافد عليّ السنين، والوجوه والأجيال، ولا تتوقّف الرسائل عن المجيء.

كنت في الثلاثينيات من العمر ولا زلت عزباء، حُلم لكل المدرسين الزملاء، والتلاميذ الذين يرونني فتاة الأحلام.



أتلذّذ من هذه الحقيقة، وأستمر في رفض العرسان المتقدّمين، وأتعامل بجفاء مع الجميع، إلا تلاميذي.

أقرأ رسائلهم وأضحك، أحتفظ بها إلى اليوم.

أملك رسالة من الباشا أيضًا، أهدّده بها عندما لا ألقى الترحيب الذي أريده في الكوافير.

كنت أرتدي الجيب القصير والتوب الضيّق الملّون، كل يوم، أسير غير عابئة بالأنظار.

توقفني السيدات في الشارع داعيات لي بالهداية، فأنظر إليهن بسخرية وأكمل طريقي.

في منتصف التسعينيات، يقلّ توافد العرسان على بيتنا، فتبدأ أمّي في القلق.

- الرجال يريدون فتاة ملتزمة للزواج، وأنت تسيرين وكأنّ لا أحد يُهمّك.

• لا أحد يهمّني بالفعل.

- أنا لن أعيش لكِ.

• لا يجب أن يعيش لي أحد.



- لن تستطيعي العيش وحدكِ، يا فلك، أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت.

• اطمئني يا أمّي، أنا بمائة رجل.

- الله يسامح أبوك ويرحمه.

تتمتم بهذه الدعوة كلّما جاءت سيرة الزواج، كلّما ذهبنا إلى أيّ مكان، إلى أي زفاف، حتى إلى السوبر ماركت.

أنظر في المرآة معجبة بشكلي.

الحقيقة أنّ لا أحد يستحق هذا الجمال.

يجب أن يكون شخصًا مميّزًا للغاية، رائعًا، يختلف عن الجميع حتى تقبل به فلك.

وكان هذا الشخص هو محمود، مدرس الرياضيات المنقول حديثًا، يصغرني بعامين لكنّني لم أبالِ.

لقد قرّرت أن يكون هذا هو سعيد الحظ، الذي أحبّه، وأوافق على الاقتران به.

كان محمود خجولًا للغاية.



يطرق على باب الفصل فأفتح له، يتبادل معي بعض الكلمات بصوت هامس، بينما يصيح الصبيان خلفنا بأصوات عالية تجعلني لا أسمع نصف كلامه، لكنّي كنت أفهمه رغم ذلك.

كان حبّنا محدودًا على الكلمات البسيطة التي نتبادلها في «الطُرقة»، أو على باب الفصول في الحِصص.

لم نتبادل كلمات الغرام، ولم نعترف لبعضنا بعضنا بالحبّ كما يفعل المراهقون.

نسير معًا في شوارع المدينة بعد المدرسة، يوصلني إلى مقربة من البيت.

أدعوه للصعود فيرفض تمامًا.

يقول: من غير اللائق أن يدخل البيت دون وجود رجل معنا.

- لكنّي أدعوك بنفسي، بالتأكيد لن تدخل للتهجّم عليّ أنا وأمّي.

يضحك محمود بخجل، ويقول كلمة واحدة: الناس..

أقول فليذهبوا إلى الجحيم، فيطأطأ بلسانه معترضًا.

كان يهتم برأيّ الناس الذين لم أهتمّ بهم يومًا، لكنّي لم أعلم أنّهم على العكس، يهتمون بي، ويحسبون عليّ حركاتي، ويحصون عدد أنفاسي، ودقّات قلبي، وخطوات قدميّ.



يتهامس المدرسون في المدرسة عليّ.

تتطوع واحدة في تأكيد أنّني وإياه نجلس وحدنا دائمًا في غرفة الرسم.

يصل الحديث إلى مديرة المدرسة، فتستدعيني وحدي.

- هل الكلام الذي سمعته حقيقي؟

• وما هو الكلام؟

- أنت تجلسين مع المدرسين وحدكم في غرفة الرسم؟

• أنا أجلس مع أيّ شخص وحدنا أو مع الآخرين، في غرفة الرسم، أو فناء المدرسة، هذه ليست مشكلة بالنسبة لي.

- إنّها مشكلة للمدرسة.

• إذن على المدرسة حلّها.

تنظر إلي المديرة بدهشة، لا أتلعثم ولا أحني رأسي، أقف أمامها بثقة تربكها، فتكتفي بلفت نظر.

أخرج من مكتبها باحثة عن محمود لأخبره بما حدث، وأسخر معه من المديرة، أجده جالسًا في غرفة المدرسين، أشير له من بعيد فيتجاهلني، يدسّ وجهه في كراسة يصحّحها أمامه.



أتجمدّ في مكاني دقيقة، ثم أفهم.

يومها سرت إلى البيت وحدي للمرة الأولى منذ شهور، لكنّي لم أحزن.

في الصباح التالي، كنت أسير مرفوعة الرأس في فناء المدرسة، حيث يقف مدرسو الحصة الأولى كلٌّ أمام فصله.

أتوجّه إلى مِس صفاء مُدرّسة الإنجليزية، التي تطوّعت بنشر الأكاذيب عنّي.

كانت تضع أطنانًا من المكياج على وجهها، وترتدي حجابًا أحمر شدّت مقدمته للأمام ليبدو وجهها أطول. أقف أمامها تمامًا وأقول بصوتٍ عالٍ:

- أشكرك يا صفاء على كشف الحمقى والجبناء في المدرسة أمام عينيّ.

يحتقن وجهها ولا تردّ، ينظر إلينا الأطفال بفضول، بينما يهبط صمت ثقيل على الطابور الصباحي دائم الإزعاج.

ألتفت وأعود إلى غُرفة الرسم دون أن أنظر لأحد، لكنّي ألمح محمود منزويًا في جدار حالك، يكاد يختفي داخله فأنظر إليه باحتقار، وأكمل طريقي.

انتهى محمود من حياتي وقتما أشاح ببصره عني، حتى أنّني حضرت زفافه بنفسي على صفاء بعد شهور.



يومها ارتديت فستانًا أسود بلا كتفين، وتركت شعري الأشقر على كتفيّ، وضعت أحمر الشفاه القويّ الذي أحبّه، وجلست مكاني أتطلّع إليه وهو يزّف إلى الفتاة المعتادة.

لو لا أبي لكنت معتادة.

الله يسامحك يا أبي، أتمتم لا إراديًا بدعوة أمي، فأشعر بالسكين تخترق قلبي للمرة الأولى.

لم أحزن على محمود، لكنّي تمنّيت لو كنت أجلس مكان الفتاة المعتادة بفستان الزفاف الأبيض المعتاد، الطرحة المعتادة، مع خُصلة الشعر الكبيرة المصبوغة من الأمام، والمكياج المعتاد.

أنهض من مكاني فتتجه إليّ العيون كلها. أغادر القاعة الصغيرة وأعود إلى البيت.

تستقبلني أمّي بوجه عابس، فأطلب منها ألاّ تلقي عليّ المحاضرة نفسها، ولو ليوم واحد، لأنّي أريد أن أنام.

أستيقظ، وأنام.

أذهب إلى العمل وأعود منه.



أسير في الشوارع وحيدة، بلا أصدقاء؛ لأنّ لا أحد يجرؤ على السير بجواري، بلا حبيب، بعد أن توقّف الجميع عن طلب يدي، أو التودّد إليّ.

في عيد ميلادي الأربعين، رحلت أمي.

كان رحيلها غير مفاجئ، في المستشفى بعد رحلة طويلة من المرض، لكنّها كانت سعيدة الحظ بوجودي إلى جوارها.

أخلّل أصابعي في خصلات شعرها الرمادية، تشعر بالاطمئنان لمجرد وجودي.

تنظر إليّ مطولًا وتقول: الله يسامح أبوك ويرحمه.

كنت اعتدت التعامل مع الموت.

لم أرتعش مثلما حدث من قبل، استقبلت الخبر بثبات، وأنهيت أوراقها كلها.

أتممت مراسم الدفن وتلقّي العزاء، ثم أغلقت عليّ باب البيت للمرة الأولى، وحدي.

أعيش وحدي في البيت الكبير، في صمت لا يقطعه سوى صوت التلفزيون إن أشعلته.

أكتفي بالعمل، وشرب الشاي في الشُرفة، ثم النوم بعد صلاة العشاء مباشرة.



لا أنام منذ أن رحلت أمي، نسيت النوم كما تقول الست؛ لكن ليس عن حالة عشقية، بل هي حالة انتباه دائمة.

أشعر وكأنّني نائمة، لكنّني في الوقت ذاته مستيقظة جدًا.

أكاد أرى حدود جسمي والفراش، والخزانة، والتسريحة، حدود كل الموجودات في الغرفة في الظلام الدامس، بل يمكنني رؤية كل تفاصيل المنزل، والشارع، والمدينة.

منتبهة لكل شيء، لكل صوت، أسمع الهمسات، والخطوات، صفير القطارات في المحطة البعيدة، أسمع صوت دعاء المصلّين الذين يتوافدون على المسجد في الشارع المجاور.

أسمع صوت تنفّس طفل الجيران، وصوت تقلّب شقيقته.

أتناول كل المهدئات والمنومات بلا فائدة، نائمة ولا نائمة.

يخبرني الطبيب أنّني أتوهّم، وأنّ هذه بالتأكيد مجرد أحلام، لكنّني أعرف أنّها ليست كذلك.

أحاول اعتياد حياتي بهذا الشكل، النوم اللا نوم بهذه الطريقة...

نصف حياة، نصف نوم، نصف عمل.



تمضي الأيام بسرعة لا تصدّق، رغم أنّها في الوقت نفسه بطيئة للغاية.

أكاد أموت مللًا في انتظار نهاية الشهر، لكنّ نهاية العام تأتي وكأنّ التي تسبقها كانت بالأمس.

أترقّى لأصبح موجّهة رسم، فأمر على المدارس المختلفة، لا أتخلّى عن ملابسي المعتادة، حتى لو كنت في الطريق إلى قرية صغيرة تابعة لإدارتي بجوار المدينة، أخرس الألسنة بنظراتي الحادة ولساني الذي أصبح سليطًا، حتى لم يعد أحد قادرًا على رفع عينيه في عيني.

أترقّى أكثر لأصبح موجّهة أولى، ولتنتهي رحلتي بالجلوس في الإدارة طيلة النهار للإشراف دون عمل شيء.

أتأمل في الفراغ لأكتشف أنّني أصبحت ما كنت أخشاه دومًا، معتادة، والأسوأ وحيدة.

أقف أمام حائط الإنجازات الذي أقامه لي والدي في البيت، لا أجد سوى بضعة شهادات مثيرة للضحك، الشهادة الابتدائية، والثانوية، والتخرّج، وشهادات تقدير وشهادات أخرى ملونّة لا أعرف من أين حصلت عليها.

صوري مع والديّ وصور أخرى وحدي، ما الإنجاز الذي فعلته سوى استمراري في فعل ما أريده دون الاهتمام بأحد؟



بعض اللوحات التي حملتها معي من المدرسة بعد انتهاء خدمتي، لوحات ساذجة ترضي مناهج الوزارة، ومرور الموجهين المفاجئ، أهم ما فيها هو كتابة العام الدراسي واسم المديرة بخط واضح على جنب.

لم أملك موهبة حقيقية.

كنت طالبة متفوّقة لأنّني أنفذّ ما يريده الأساتذة في المدرسة والكلية، وكنت مدرّسة جيّدة لأنّني كنت أطبّق ما يريدونه في الوزارة.

لم أكن أملك هذا الوهج الذي يميّز الفنّانين الحقيقيين الذين درست أعمالهم.

أنظر إلى خطوطي المحتنقة، وألواني الجامدة التي تتظاهر بالروعة وأعلم وحدي الحقيقة.

لا أتميّز بشيء سوى جمال اختفى أسفل التجاعيد والشعر الرمادي، سوى بعض قطع الملابس البالية، التي لم أغيّرها منذ 30 عامًا.

يقرّر زملائي إقامة حفل توديع لي بمناسبة خروجي على المعاش.

أقف أمام المرآة لأرتدي ملابسي، أرتدي فستانًا قصيرًا عتيقًا من القطيفة الخضراء، وأضع وشاحًا أحمر حول رقبتي.

أتأمل وجهي المرهق بتجاعيده، وشعري الذي اختلط فيه الأشقر بالأبيض، فأقرّر المرور على الكوافير الجديد الذي افتتح قريبًا من المنزل.



أعرف أنّ صاحبه كان تلميذي؛ فأطالبه بمعاملة خاصة بكل تأفّف.

يجلسني بنفسه على المقعد ويأمر عامله بتلبية كل طلباتي.

أداوم على الذهاب مرّة في الشهر لصبغ شعري، وعدم السماح بمثل هذا اللون الرمادي بالظهور أبدًا.

لم أكن مقتنعة بأنّني كبرت إلى هذا الحد، وأنّني لم أنجز شيئًا، وأنّني لم أحقّق ما توقّعه لي أبي، ولا ما تمنّته لي أمّي.

أجلس على مقعدي الدائم في صالة البيت، وأشعر بالغصّة، أين إنجازاتك يا فلك؟ وأين الجميع؟

لم أتوقّف عن تأمل الفساتين البيضاء في فتارين العرض يومًا إلى هذه السن.

حان الوقت لمصارحة نفسي بأنّني لم أنجز شيئًا؛ لأنّ حلمي الحقيقي لم يكن سوى ما رفضته طيلة عمري.

كنت أتمنّى ارتداء الفستان الأبيض، والأهم من ذلك، الاستناد على رجل بجواري.

التفاصيل البسيطة التي أراها في كل مكان من حولي، مثل تسوّق رجل وامرأته في السوبر ماركت، بمظهرهما المتعب البائس، وجدالهما حول متطلّبات البيت، تجعلني أدمع، وأحسدهما.



جلوس سيدة بجوار زوجها في عيادة الطبيب، توقّف امرأة أمام محل يعرض قمصان النوم، مستلزمات الأطفال في الصيدلية، فكرة الشعور بأنفاس حارة تلفح عنقي وأنا نائمة.

كلها أفكار تجعلني أزداد تمسكًا بأنّني لم أكبر.

أفتح عينيّ على الحقيقة، أصارح نفسي بأنّ جلّ ما أتمنّاه اليوم هو ارتداء فستان أبيض.

هو الشعور بلمسة رجل على وجنتيّ، بأصابعه تتخلّل خُصلات شعري.

هو التعلّق في ذراعيه والسير معه، والجلوس بجواره ليرانا الجميع.

أريد النوم وهناك شخص ما بجواري، يهدهدني ويطبطب على كتفي.

أقف في منتصف الصالة وأصرخ: أنا وحيدة جدًا.

لا يسمعني أحد، لكنّي أسمع نفسي، كانت هذه هي المرّة الأولى التي أعترف فيها صراحة بهذا، وكان هذا يكفي ليجعلني أشعر بهذه الحقيقة أكثر وأكثر.

في هذه اللحظة عرفت ما عليّ فعله...

أنزل من البيت كل يوم لأتمشّى بين فتارين عرض فساتين الزفاف البرّاقة الجميلة.



أختار الصباح الباكر الذي تخفّ فيه حركة الزبائن والمارة.

أدخل من الباب فتتأمّلني البائعات بتعجب، يكن لم يفرغن بعد من كنس المحل وتنظيفه، فأطلب قياس فستان واثنين، يسألنني لكِ أنت؟ فأجيب بنعم.

أحكي لهنّ قصة قمت بتأليفها طيلة الليل عن الفتاة المسكينة التي أرعاها من الطفولة في ملجأ الأيتام، والتي ستتزوّج أخيرًا الأسبوع القادم، وأودّ مفاجأتها وابتياع فستان الزفاف لها دون أن تعلم.

تتأثّر الفتيات بقصتّي ويساعدنني بحماس في الاختيار، أقيس فستاناًا بعد الآخر.

أتأمل نفسي به أمام المرآة، أشعر بأنّني أتنفسّ بسهولة، وكأنّني وجدت الرداء الذي يناسبني أخيرًا.

أستقرّ على فستان واحد في النهاية، واسع ومطرّز لكمين قصيرين مثل سندريلا، أشتريه فورًا وأغادر المحل مصحوبة بدعاء البائعة لي عن هذا الخير الذي أقوم بفعله، تستحلفني أن أصوّر لها العروس يوم الزفاف فأؤكّد لها أنّني سأفعل.

في اليوم التالي كنت قد أعددت كل شيء،

أضع الفستان في شنطة بلاستيكية خضراء مع الحذاء اللامع عالي الكعب، والطرحة والتاج، أتوجّه للكوافير، وأدخل لأجلس مكاني مثل كل مرّة.



يأتي الباشا ليلقي عليّ التحية، ويأمر أحد صبيانه بالبدء في صبغ شعري، ثم تأتي نادية لغسله.

تنتهي من الغسيل، فأطلب منها أن تصفّف لي شعري بالمكواة اليوم، وترفعه عاليًا.

- يبدو أن وراءكِ مناسبة مهمة يا مِس فلك..

• نعم يا نادية اليوم مهم للغاية، لكن سأرتدي فستاني أولًا.

أدخل إلى غرفة تغيير الملابس وأطلب منها مرافقتي، أخرج الفستان أمامها فتضع يديها على فمها.

- ماذا بك؟ هل هذه أوّل مرّة ترين فيها فستان زفاف؟

• هل، تتزوجين يا مِس فلك؟

- نعم، زفافي اليوم.

• على مَنْ؟

- لا شأن لكِ بهذا، لِمَ تسألين؟، افعلي ما آمرك به، ساعديني في ارتدائه.

تساعدني نادية في ارتداء الفستان الأبيض.



أخرج به فيحلّ الصمت على الجميع، ينظرون إلي وكأنّني عارية.

تبدأ نادية في تصفيف شعري، وتثبيت الطرحة والتاج، تنتهي فأخرج حمرتي وأمرّرها على شفتيّ بنفسي.

تهرع نادية إلى مكتب الباشا لمناداته، فيخرج في وقت قيامي من المقعد نفسه، وأنا أحمل حقيبتي البلاستيكية التي تضمّ ملابسي.

- مِس فلك، أرجوك لا تغادري السنتر هكذا، الشوارع غير آمنة اليوم، وعربات الشرطة في كل مكان.

• وهل أسرق؟ ماذا جرى لك يا ولد، كيف تجرؤ على إيقافي.

- يمكنك البقاء هنا بالفستان، يمكنك الجلوس معي في المكتب.

• ابتعد عن طريقي أريد اللحاق بالزفاف.

يتبادل الباشا ونادية الأنظار، كانت الشوارع هادئة والجميع في بيوتهم؛ خوفًا من الانفجار الحاصل هذا الصباح في كنيسة قريبة، أبعده عن طريقي وأخرج من الباب بثقة، أرفع جانبي الفستان وطرحتي تتطاير خلفي برفق.

تجري نادية خلفي للحاق بي في الشارع.

أنظر إليها فتقول: سأحمل لك الطرحة.



أشير لها بأنّها يمكنها ذلك، أكمل طريقي في السير في الشارع، المارة القليلون يتوقّفون للنظر إليّ، يضربون كفوفهم ببعضها بعضًا.

يصيح أحدهم: أين العريس يا عروسة، فتنظر إليه نادية نظرة تخرسه.

أسير في الشارع الرئيس للمدينة وسط سيارات الشرطة والإسعاف التي تمرّ مسرعة من حولي، بأضوائها الخاطفة وكأنّها تزفّني كما أردت.

يسير خلفي وخلف نادية بعض المارة المتعجّبين الذين يريدون معرفة ما الذي يحدث بالضبط، لا أهتم بهم.

أكمل في طريقي الذي حدّدته بدقّة إلى المقهى المفتوح الشهير في منتصف الشارع.

تمد لي نادية ذراعها فأتأبطه، كانت يدي باردة جدًا، تدفئني سخونة يدها التي تمسك بها كفي بحرص، تبتسم لي فتتوقف رجفة ركبتيّ قليلًا، كنت خجلة وخائفة، لم أكن قوية لهذه الدرجة التي حسبتها، أفزعني تجمهر الجميع من حولي، لكن نادية منحتني الثقة رغم كل شيء.

نصل إلى المقهى فأجلس على مائدة وتجلس نادية بجواري. يتجمّع المارة من حولي، فيهرع النادل لإبعادهم.



أجلس والابتسامة تملؤ وجهي، تنظر إلي نادية فتبتسم هي الأخرى، تسألني هل أنت سعيدة؟

- أنا في قمّة السعادة..

يقترب منّي بائع الفُلّ ليضع طوقًا حول عنقي، وآخر حول عُنق نادية، تخرج له نادية بعض الجنيهات فيرفض تمامًا.

- والنبي شكلها حلو، مبروك يا عروسة.

تزداد سعادتي أكثر، وينتشر الخبر في المدينة الصغيرة بسرعة أكثر، يمر الأولاد ليلتقطوا صوري بهواتفهم، يلتمع الفلاش في عيني فأبتسم لهم.

أجلس بثقة بينما ترتبك نادية من الزحام الذي يتكوّن كلما فضّه نادل المقهى.

تتوقّف أمامنا سيارة شرطة، ينزل منها ضابط شاب ليسألني عمّا أفعله بالضبط.

- أجلس على مقهى كما ترى.

لماذا ترتدين فستان عروس؟

ترد نادية: وهل هناك قانون يمنع ذلك؟

ينهضني الضابط من مقعدي برفق، ويصرّ على اصطحابي إلى المخفر، تحاول نادية إيقافه فيسألها عن قرابتها لي، تصمت فيطلب منها الابتعاد.



- الأوامر التي صدرت لي هي اصطحابها إلى المخفر وتحرير محضر إثبات حالة، خشية إيذائها لنفسها أو الغير.

لكنّها لم تضر أحدًا..

- ربما تضر نفسها.

كنت مستسلمة تمامًا له، ألوح لنادية والضابط يفتح لي باب السيارة الخلفي، يساعدني على الركوب ويغلق باب السيارة عليّ، تقترب نادية من النافذة، تصرخ.

- سأخبر الباشا، سيخرجك فورًا..

أبتسم لها وأستمر في التلويح لها بيدي. هذه هي النهاية المثالية للحفل، زفّة بالسيارة إلى حيث أستطيع الاسترخاء قليلًا، لقد كان يومًا مُرهقاً جدًا.

تبتعد نادية عن ناظري، أريح رأسي على مسند الأريكة الخلفية، الآن يمكن أن أغمض عيني قليلًا، الآن فقط يمكن أن أنام.





زينب

يقول علي:

- أغمضي عينيكِ وتشبّثي جيّدًا،

أُحكِم لفّ ذراعيّ حول خصره، أغمض عينيّ في اللحظة نفسها التي ينطلق هو فيها بدرّاجته البخارية في الشارع الفارغ، تبدأ الموسيقى في الانسياب في السماعات الداخلية للخوذة التي أصرّ على ارتدائي إياها.

أصرخ في أذنه: ما اسم هذه الموسيقى؟ يجيب بشيء لا أسمعه، يكاد الهواء يطيرني فأرجع رأسي إلى الوراء، أستسلم له، ولرائحة النيل التي تهبّ عليّ بقوّة ونحن نصعد كوبري قصر النيل، كان يسير بسرعة كبيرة، وددت لو سألته أن يبطئ قليلًا، أن يبطئ للأبد، أن نظلّ هكذا معلّقين في هذه اللحظة، بهذه



الموسيقى تدويّ في آذاننا، برائحة النيل، والهواء الذي يضرب وجنتيّ، بعنف، إنما بلذة.

تدمع عيناي وأنا أقف في شرفة منزلي اليوم، أعوام عديدة مرت لدرجة أنني لا أتذكرها، فأين اختفت الموسيقى إذن؟ أين اختفيت أنا، سقطت في قعر صامت، حيث لا هواء، ولا رائحة، ولا حسّ.

يضرب الصداع صدغي الأيسر، أضع كوب الشاي على السور، بالأسفل، تضوّي سيارات الشرطة بصوت لا يصل لي في هذا الطابق المرتفع، تدور في الشوارع مع الإسعاف، تنقل المصابين من الكنيسة إلى المستشفيات في المدينة، الشوارع فارغة، أفرغها صوت انفجار لا تعرفه، قطع الصمت وليته لم يقطعه.

أتناول حبتيّ مسكن برشفة شاي، أغمض عينيّ، أتوسّل إلى الهواء أن يهبّ ولو قليلًا، أريد أن أتنفسّ، أريد أن أشعر بأنّني حيّة، ماذا كان اسم الموسيقى؟

نساء متّشحات بالأسود يجرين في الطريق، متى استعددن بالأسود؟ هل علينا تحضير زيّ جاهز بهذا اللون في خِزاناتنا اليوم؛ لأنّ الموت صار معتادًا لهذه الدرجة، يعلن عن نفسه، فنرتديه ونذهب لاستقباله.

الشرفة فارغة، ولو من مقعد، فارغة مثلي، اعتدت الوقوف بالساعات، أرمق



اللا شيء، البشر كالنمل من هنا، حتى الاقتراب منهم ممنوع عليّ، أنا في برج عالٍ، رغم أنّي في قعر غويط.

بحثت كثيرًا عن هذه الموسيقى، شعرت بأنّها كانت من فيلم أميركي شهير، إحساسها يطوّحني كريشة في مهبّ رياح.

أستمع كل يوم إلى عشرات القطع بلا جدوى، أرسل لعلي رسالة على الفيسبوك أسأله، ماذا كان اسم الموسيقى في هذه الليلة؟

يجيبني، وما جدوى ذلك؟

من الجيّد أنّه ردّ هذه المرّة، يقاطعني تمامًا منذ زواجي.

لم نكن في قصّة حبّ عارمة، لكنّه كان هناك، وأنا كنت هناك، نقف متواجهين يفصلنا نصف عمود أسمنتي، نضع عليه كوبيّ قهوة صنعت على عجل مثل لقائنا. يسألني: هل أنت متأكّدة من القرار؟ أجيبه بنعم.

- أنت لا تعرفينه..
- هكذا نتزوج في عائلتنا..
- لا يوجد شيء كهذا...
- أنت لا تفهم شيئًا، تزوّجت شقيقاتي هكذا، وأنا سأتزوج بالطريقة نفسها.



- العريس الثريّ المهذّب ابن الأصول، الذي يربط أبوه بأبي مصالح مشتركة، لا يوجد لدي سبب للرفض.

• هذا فيلم رخيص.

- من أين تعتقد تأتي الأفلام الرخيصة؟ من الواقع الرخيص.

• زينب، أنتِ سعيدة؟

أبتسم ولا أجيب، لم يسألني أحد قط، هذا السؤال، يسألونني زينب هل أكلتِ؟ هل تحمّمتِ؟ هل أنهيت الواجب؟ هل رتّبتِ فراشك؟ هل راجعت محاضراتك؟ هل سلّمت على عمّتك؟

لكنّ أحدًا لم يسألني عن سعادتي من قبل، زينب هل أنتِ مرتاحة؟ زينب هل أنتِ مطمئنة؟ هل تحتاجين إلى حضن؟

أنظر إلى علي، كنت أروّض قلبي على عدم الوقوع في هواه منذ اليوم الأوّل للقائنا، أتنهّد وأهزّ رأسي بالإيجاب.

- إذن ألف مبروك.

يلقي بكوب قهوته في الفتحة المخصّصة لذلك.

ينظر إلي ويغادر المكان.



هكذا ببساطة دون أن يخبرني عن اسم الموسيقى التي أسأله عنها منذ بداية اللقاء، إلى اليوم لا يريد إخباري.

لكنّي أستطيع استرجاعها في ذهني كلّما أردت.

أغمض عينيّ وأشغلها، فأبتعد عن هذه المدينة الصغيرة إلى عالم آخر، تتحول فيه الحياة إلى مكان أكثر قسوة، حيث أستطيع أن أعيش، وليس التظاهر بأنّني أفعل.

كلّما خفت، أغمضت عيني وهربت إلى مكان آخر، كما فعلت عندما أوقفني أبي في ركن الغرفة، يمسك في يديه برواية من روايات عبير، اقترضتها من زميلة لي في المدرسة، كان وجهه متغيّرًا وكأنّما قامت القيامة، خلفه تقف أمّي جامدة بلا ملامح، هي من جلبته لتأديبي بعد أن وجدت الرواية وسط كُتُبِي في حملاتها التفتيشية على غرفي أنا وشقيقاتي.

- الحب الملتهب؟ لمن تقرأينها يا هانم؟ أخبريني الآن؟

كنت أضع أصابعي في فمي بعد صفعته المفاجئة لي لحظة اقتحامه لغرفتي، كان أبي يقتحم غرفنا في أيّ وقت، حتى ولو كنا نغيّر ملابسنا، يخلع الأقفال، ويلغي المفاتيح بيده عند أيّ تغيير لمقابض البيت، لا باب يُغلق، ولا خصوصية لبنت..



أقسم أنّها رواية صديقتي، وأنّني أقرأها على سبيل التسلية لا أكثر، يمزّقها أبي قطعًا صغيرة أمام عيني، ويصرّ على الاتّصال بوالدة صديقتي ليعلّمها الأصول كما ذكر.

- أرجو إبعاد ابنتك عن ابنتنا يا مدام. نحن محافظون لا نقبل بهذه المساخر.

لم يكتفِ أبي بهذه الإهانات العظيمة لمراهقة في مدرسة ثانوية للراهبات، بل أتى إلى المدرسة نفسها، ليفضح الفتاة أمام الجميع كما قال، وليحذّر المُدرّسات منها.

كنت أنا أمام فُوّهة المدفع بعد ذهابه، ليس بيدي حيلة، أعذرهم وهم يبتعدون، وهم يتحاشونني كالوباء.

أذهب إلى المدرسة وحيدة، وأعود وحيدة.

غريبة وسط الجميع، لا قادرة على التقبّل والخضوع كبقيّة شقيقاتي الأربع، ولا التمردّ والتصدّي كما أحلم كل ليلة.

أتقلّب في فراشي لأتخيّل سيناريوهات مختلفة للهرب.

لا أنفذّ واحدة منها. تمرّ الأيام ثقيلة، محاصرة، مراقبة، حتى أتمنّى الاختفاء ولو للحظات.



أشم فيها بعض الهواء، أجلس على النيل، أسير على الكورنيش، أترك نفسي هكذا فقط، دقائق، ساعات، أيام.

في الجامعة ذهبت إلى النيل بلا مُعين.

أهرب من السائق الخاص الذي عيّنه لي أبي كما فعل مع شقيقاتي من قبلي، للذهاب والعودة من وإلى الجامعة الخاصة البعيدة في القاهرة الجديدة، إلى بيتنا الكبير في حيّ المعادي.

أفرّ إلى قلب القاهرة وكأنّني أخرج إلى الحُريّة.

حرية معدودة بقدر ساعات المحاضرات التي لا أحضرها.

أعود بعدها مجدّدًا لأنتظر على باب الكُلّية للذهاب إلى المنزل.

اخترت كلية نظرية لا تتطلّب جهدًا للتفرّغ لأحلامي.

في الواقع لم يكن والدي يأبه كثيرًا لإنجازاتي العلمية بقدر إنجازاتي في الزواج القادم؛ لذا كانت فكرة طلب يدي المبكّرة قبل إنهائي لدراستي بمثابة طوق نجاة وخلاص.

بينما يعتقد الجميع أنّني أواظب على حضور محاضراتي، كنت أنا أواظب على حضور الأفلام في سينما صغيرة في وسط البلد، لا يرتادها عادة سوى المثقفين،



تعرض أفلامًا أوروبية أو عربية مستقلة، أجلس وحدي بين عدد محدود من الأشخاص، أتابع سحرًا خالصًا على الشاشة.

أنتظر لحين انتهاء التترات كلها، أقرأ كل الأسماء التي شاركت في صنع هذا السحر.

أبقى وحدي في صالة شبه مظلمة، يستعدّ أصحابها لعرض الفيلم التالي، بينما أنتظر أنا آخر اسم.

لا ينتظر معي سوى شخص واحد، في كل مرّة يظلّ جالسًا مثلي، مشدوهًا للأسماء، لا ينتبه إليّ إلاّ في المغادرة، يفسح ليّ الطريق كل مرّة بابتسامة.

أعبر من جانبه لأعود من جديد إلى عالمي الآخر، بينما يظلّ هو هناك، جالسًا على المقهى المقابل، ينتظر شيئًا لا أعرفه.

ذات مرّة، أستجمع شجاعتي كلها التي لم تخاطب رجلًا قط، أتّجه إليه وأقف أمامه، أسأله ماذا تنتظر؟

ينظر إلي وكأنّه يراني لأوّل مرة، يبدو أنّه تذكّرني فجأة، يبتسم ويشير لي بالجلوس...

- فتاة التترات، اجلسي..

• هذا ما تطلقه عليّ؟



- حتى أعرف اسمك.

لا يسألني علي عن أيّ شيء آخر، لا يهمّه أن يعرف. كان يتحدّث كثيرًا وأنا أسمع، يأخذني إلى أماكن لم أعرف وجودها حتى في هذا البلد.

أتعلّم الكذب على والديّ، أتعلّم المطالبة ببعض حقوقي، ومن بينها الذهاب إلى الجامعة دون سيارة وسائق.

أتعلّم الزيادة في الانقسام، كيف أبالغ في إظهار الطاعة في البيت.

كيف أطاوع بلا مجادلة.

كيف أكسب ثقة والدي، فيمنحني ما أريد من مال وامتيازات خاصة لم تحدث من قبل لشقيقاتي.

يتباهى بطاعتي العمياء، وبعقلي الذي يوزن بلدًا، بينما أنا أخرى خارج المنزل.

- هل تعلم أن أهلي منحوني الجنسية الأميركية فور مولدي؛ لأتمكّن من الخروج والدخول من هذا البلد الذي لم أغادره حقًّا إلاّ جنينًا كما أشاء، مثلي مثل بقية شقيقاتي، لكنّهم وفي الوقت ذاته، لم يمنحوني حُرّية الخروج والدخول من المنزل.

أضحك، فلا يفهم عليّ ما أقول، يضحك معي مجاملاً.



لا يعرف من أنا ولا من عائلتي ولا من أين أتيت، أنا في عينيه كنت فقط «فتاة الترترات».

لا يعلم أنّني أتابع الترترات فقط لأحسد الأسماء عليها، أحسدهم على قدرتهم على التمرّد، على الفنّ، على الاختيار، والتعبير عن رأيهم.

نحن في نظر أبي مجرد ممتلكات خاصة، يقتنيها لحين التخلّص منها في صفقة جديدة من صفقاته، تعود عليه بالمكسب أولًا، إمّا بالوجاهة الاجتماعية، أو بالعلاقات، أو بضمان مادي مناسب.

ما الذي نريده أكثر من ذلك؟ حياة مترفة ننتقل منها إلى كنف زوج أكثر ثراءً.

منزل فخم ننتقل منه إلى منزل أكثر فخامة.

ملابس تحمل أسماء علامات عالمية، يجلبها لنا والدي من سفرياته المتعدّدة غير المسموح لنا بمرافقته فيها، حُرّية مظهرية، يكمن أسفلها كل التحكّم الذي لا يمكن تخيّله.

يدخل عليّ أبي كعادته الغرفة دون إذن، كانت الموسيقى لا تزال تفعم أذني، يسمح لي بالخروج الآن ليلًا مع الأصدقاء الذين لا يعرف أنّهم ليسوا سوى «عليّ» وحده.



يضع يديه في جيبي سترته، ويقول وكأنّه يخبرني أمرًا عاديًا.

- غدًا مساءً يحضر ضيوف لنا، صديق قديم لطلب يدك لابنه.

أنظر إليه ولا أردّ، يكمل حديثه دون توقّف، الفتى درس في كليتك نفسها، لكنّه يسبقك بسنوات، لا أعتقد أنّكما تلاقيتما من قبل.

يتنحنح مضيفًا: لن تعيشان في القاهرة، العريس يملك مركز تجميل ضخم في مدينته لا يمكن تركه، لكنّ المكان لا يهمّ بالتأكيد، المرأة تعيش مع زوجها أينما أراد.

زوّجني أبي، وعيّشني وغيّر حياتي بكلمتين وإيماءة. يخرج دون انتظار للردّ، لتدخل بعده أمّي مُهلّلة.

- الفتى في غاية الكمال، أنت محظوظة جدًا...

أنا محظوظة جدًا، كيف لا، وأنا أضمن حياة وبيتًا وعيشة رغدة قبل إنهاء دراستي حتى، يجلس أبي مع أزواج شقيقاتي ووالد العريس في جانب.

يأتي وحده مع ابنه فقط، تلكزني شقيقاتي فور رؤيته، يتعجّبن من جماله وحسن هندامه.

- يالك من محظوظة.



يمطرنني بالكلمة حتى أكاد أؤمن بها، يجلس معي صامتًا مداعبًا هاتفه، أشعر وكأنّه هو الآخر مجبور على هذه الزيجة، لكن هل يُجبر رجل اليوم؟

عيناي لا تفارق وجهه، فيرفع بصره إليّ متعجبًا، يضحك بشبه سخرية:

- أنت جريئة جدًا.

• لماذا؟

- تنظرين إلي، ومن المفترض أن يحدث العكس.

• يمكنك النظر إليّ كما تريد، ألم تأتِ للمعاينة؟

تتغيّر ابتسامته من سخرية إلى تقطيبة حيرة.

ينظر إلي متسائلًا، لكنّ أبي لا يمهله وقتًا، يقتحم جلستنا معلنًا بأنّ الخطبة الأسبوع القادم.

- لا داع لخطبة طويلة، أرى أن يكون الزواج بعد ستة أشهر، كافية لإنهاء التحضيرات اللازمة.

يردّ والده بطلبه الغريب في أن يكون الزفاف وتجهيز العروس في الكوافير الخاص بهم في مدينتهم.

لا أكاد أفتح فمي للاعتراض حتى يوافق أبي فورًا.

تهمس له أمّي متسائلة، والعائلة والأصدقاء كيف يحضرون؟



- من يود حضور زفافنا يأت إلينا، المدينة ليست في نهاية العالم.

يجلل صوته بالضحكات بينما أحافظ أنا على الصمت، هذه الأمور لا تعنيني في شيء، حتى اختيار الفستان تركته لوالدتي وشقيقاتي، يجلبونه من الخارج خصيصًا، ينفق أبي على زفافي أضعاف ما أنفقه على شقيقاتي، أسأل أمّي عن سبب كل هذا الاحتفاء؟!

- هذا الفتى الذي لا يعجبك يملك ثروة لا يمكن إحصاؤها، والدك عبقري، سيتوسع في مشاريعه بفضلهما.

الحاج سيترك إدارة مركزه للفتى، ويتفرغ للاستثمار مع أبيك، ماكينة أموال بلا حساب، من يمكن أن يرفض؟

ثم تنظر إلي مستغربة، ثم كيف لا يعجبك، إنّه يعجب الحجر، يشبه نجوم السينما يا حمقاء، هل كنت تحلمين بنصفه؟

- أأنا قبيحة لهذه الدرجة؟

• لا يهم، المهم سمعتنا التي لا تشوبها شائبة، والتي جلبته إلى هنا.

تنهي كلامها بحزم وتغادر.

أقف أمام المرآة لأتأمل وجهي، لم أكن قبيحة لكنّي كنت أقلّ منه جمالًا، لأتوقع تعليقات الحضور في زفافنا.



كيف يتزوّج هذا البدر من هذه.

أمرّر يدي على عنقي الطويل، شفتايّ الرفيعتان، أنفي المستقيم.

ما الذي يجعل رجلًا مثله، «باشا» كما يطلقون عليه منذ الصغر، يستطيع الاقتران بمن يشاء، يوافق بهذه البساطة؟

إلا لو لم يكن الأمر فارقًا، أنا مثل غيري، مجرد امرأة تضاف إلى مظهره الاجتماعي، ليتفرّغ إلى ما هو أهمّ.

كنت أفهم الباشا دون أن أعرفه أكثر من أي شخص آخر، وكانت كل أفكاري تجاهه تتأكّد بمرور الوقت.

«الباشا» جميل الطَّلّعة، مجرد وعاء أجوف، لا يفكر سوى في نفسه، لا يشغل رأسه الجميل بمثل هذه الجدالات الفارغة، مثل الاعتراض على عروس يقترحها أبوه، أو الذهاب لمقابلة امرأة ستصبح زوجته بعد شهور؛ إرضاء للشكل الاجتماعي.

نجلس معًا على مائدة واحدة في مطعم فخم على النيل.

كان المكان يسعدني ويشعرني ببعض القدرة على التنفّس، أمّا هو، فكان يمسك بهاتفه يخاطب أشخاصًا ويتابع أعمالًا.

- هل تحب النيل؟



- أحبّه؟ إنّه ضروري للبقاء.

- لا أتحدّث عن فائدته الجيولوجية لمصر، النيل أكبر من مجرد وعاء للشرب.

- بالتأكيد، إنّه وعاء للتفريغ أيضًا،

يضحك ضحكته الجانبية الساخرة فينقبض قلبي.

يعود لمواصلة ما يفعل دون أن يعبأ بوجودي.

لا يمر عليه مكان سوى بالسؤال عن تفاصيل سيره، ديكوراته، العاملين به.

- أفكّر في فتح سلسلة مطاعم، ربما مول تجاري ضخم، المدينة لا تزال أرضًا خصبة للمشاريع، أهلها يحبّون التجريب، إنّهم يسافرون خصيصًا إلى القاهرة لتجربة مطعم أو مول جديد.

يستمرّ في الحديث عن العمل، وأستمر أنا في الصمت.

يخبرني عن سفرياته العديدة إلى الخارج، ويتعجبّ من فكرة عدم مغادرتي.

- لماذا تملكين جوازًا أميركيًا إذن؟ على العموم هو مفيد لنا، يمكننا السفر في شهر العسل. أفكر في لندن. أملك أصدقاءً كثيرين هناك.

بعدها أودّ الذهاب إلى دهب، للقاء أصدقاء آخرين يرغبون في الاحتفال بنا، ما رأيك؟



لا ينتظر رأيي حقيقة، يخبرني فقط بخط سيرنا المقبل، كزوجين لا نعرف بعضنا بعضًا، أوافقه بإيماءة من رأسي، أحاول تخيّل حياتي مع رجل لا أكاد أطيق ابتسامته فلا أستطيع.

أتوقّف قليلًا عن التنفّس حتى أشعر بالدوار، يحتقن رأسي ويكاد صدري ينفجر، فأزفر بقوة.

هكذا كانت طريقتي الوحيدة لأتمكن من التأوّه بصوت عالٍ، حتى ولو كنت جالسة وحدي؛ لأنّني لا أجرؤ حتى على التألّم.

يسألني «عليّ» من جديد في الهاتف: هل أنت متأكّدة ممّا تفعلين؟ أجيب بنعم وأنا أكاد أصرخ، أنقذني، لكنّه لا يفهم.

يصمت لحظة ويقول: إذن، أرجو ألاّ نتحدّث ثانية.

ينهي المكالمة دون عودة، يحذفني من حساباته على «الفيسبوك» وكل وسائل التواصل، بينما أستعدّ أنا من تغيير الحالة من مخطوبة إلى متزوّجة.

كانت آلاف من الفتيات يتبعنني على الفيسبوك، يبدو أنّهن معجبات الباشا، يتساءلن عن هذه السندريلا التي خطفت فارسهن.

أدخل بخجل إلى المركز الضخم الذي لم أتخيّل أنّه بهذه الفخامة في المدينة الصغيرة التي لا يشي مدخلها بكل هذا الترف.



يعرّفني الحاج والده بمنى، أثيرته في المركز التي يبدو أنه يعتمد عليها في كل شيء. تقودني إلى حجرة التجهيز.

تعاملني بحنوٍّ كأنّني ابنتها. تعدّد في مزايا الباشا وكأنّه النبي يوسف.

- عليكِ أن تكوني بالذكاء الكافي لامتلاك قلبه، الباشا طيّب، لكنّه يحب التدليل.

لا أنطق بكلمة، تنتهي منى من كل شيء بسرعة شديدة، حتى إنّي لا أنتبه.

في الواقع لم أكن مهتمّة وكأنّ جسدي ليس ملكي، في الواقع هو ليس كذلك.

اليوم تنتقل ملكيته من والدي إلى الباشا، الاثنان من حقّهما اقتحام خصوصيته وقتما يشاءان.

هذا ليس من ممتلكاتي الخاصة، فلِمَ الاهتمام إذن؟

تقودني إلى غرفة التجميل، وفيها تنتظرني فتاة فارعة تجلس على مقعد عالٍ أمام كرسي التجميل، تنظر إلي من أسفل لأعلى، وكأنّها تحفر ملامحي في عقلها، تحدّثها منى بشماتة واضحة، وكأنّها انتصرت عليها في لعبة ما.

- عروس الباشا، اعتنِ بها يا جيجي..

تبتسم جيجي ابتسامة صفراء، تجلسني إلى المقعد وتبدأ في وضع المكياج ببطء.



تبدو عنيفة، حتى إنّني شعرت بها تكاد تقتلع عينيّ بفرشاة ظلال الجفون، لكنّي لا أنطق ولو باعتراض.

أفتح عينيّ لأجد امرأة أخرى، تبدو مختلفة، ربما جميلة، لكن لست أنا حتمًا، وهذا لا يشعرني بالسعادة.

أتناول حقيبتي لأعطيها بقشيشًا، نظراتها القاسية تخجلني، فأتناول ورقة من فئة المائة جنيه، أشعر بأنّها تتساءل السؤال نفسه: لماذا أنا بالذات؟

لكنّي بالفعل لا أملك ردًّا سوى الحظ، الذي يبدو سعيدًا للكل، تعيسًا لي.

لا أحد يدري بما يحدث في قصّة الشخص المجاور له، نحن كُتبٌ مغلقة خادعة الأغلفة، كتابي كان بغلاف ملوّن صاخب، لكنّ صفحاته كانت رمادية كئيبة، تُمرِض من يقرأه.

في يوم زفافنا، تركني عريسي في الساعة الرابعة فجرًا وذهب..

كنت قد تظاهرت بالنوم، بعد ساعات من الجلوس صامتين لا شيء بيننا لنقوله.

يجلس بملابسه ليداعب هاتفه كما أراه دومًا، بينما أجلس أنا على الفراش صامتة، في النهاية أُغلِق عينيّ عَلّني أستيقظ لأجد نفسي في مكان آخر، فيتناول هو مفاتيحه ويخرج.



أسرِع إلى الشُرفة الخالية لأراقب سيارته تبتعد، أقف لأتأمّل الشارع الساكت، أكبر شارع في المدينة، لا منظر لديهم أجمل منه، لا نيل، لا بحر، لا شيء، مدينة مغلقة لا يوجد بها ملجأ للمختنقين بالغصّات لغسل أحزانهم، فلماذا إذن أضع مقعدًا في شُرفة تطلّ على كُتلِ أسمنتية عالية؟

في اليوم التالي كُنّا في طريقنا إلى رحلته التي خطّطها وحده.

المرة الأولى التي أسافر فيها خارج البلاد، أكون مقيّدة إلى يد رجل لا أعرفه.

يتركني في غُرفة فندق صغيرة، لينطلق هو في مشاويره العديدة المستمرّة، والتي يخبرني بأنّها مُهِمة للغاية من أجل عمله.

يسمح لي بالخروج وحدي للتمشية، فلا تزيدني التمشية سوى غُربة مضاعفة، بلا انبهار ولا سعادة، ضباب كثير يخيّم على المدينة الباردة، ضباب يشبه ما يعتمل داخلي.

أتداخل فيه، أطمئن له، فأكتفي بالجلوس على مقعد في حديقة، كعجوز في العشرين.

لا نكمل أيامًا قليلة ليقرّر بعدها العودة رأسًا إلى مصر، بالتحديد شرم الشيخ، ومنها إلى دهب بسيارة خاصة تنتظرنا في المطار، كان متحمسًا وكأنّنا نستمتع بوقتنا، بينما لم نتبادل سوى عشر جمل منذ زواجنا إلى هذا اليوم.



ليلة وصولنا إلى دهب، اقترب منّي زوجي لأوّل مرّة.

لم أفعل شيئًا سوى الاستسلام له كأيّة جثة، باردة تمامًا، ساكنة بشكل أحبطه، بوضوح لم يتظاهر بإخفائه، يرفع وجهه عنّي مستغربًا، يسألني إن كان بي خطب ما فلا أعرف بما أجيب.

لا أشعر بأيّ شيء، لا حزن، لا فرح، لا حماس، لا سعادة، ولا ألم.

ينهي مهمته مرغمًا؛ خوفًا على سمعته كرجل قبل أيّ شيء آخر، وينهض ليعود إلى عالمه وأعود إلى عالمي.

في الصباح التالي، وبينما نتناول إفطارنا في الشُّرفة المتّصلة بالشاطئ عبر سلالم صخرية عريضة، أسأله لماذا تزوّجتني؟

يرفع رأسه إليّ بابتسامته الساخرة نفسها، يضع فنجان قهوته جانبًا، ويردّ:

- لماذا وافقت؟

• أنا مجبرة، أمّا أنت فلا شيء يجبرك.

- ولماذا لا تريدين الزواج منّي؟ رجل آخر؟

• لا، لكن هل هذا فقط هو ما يهمّ؟

- في الواقع لا شيء يهمّ، أنتِ لستِ مجبرة، أنتِ فقط تعرفين مصلحتك، ومصلحة والدك.



- وأنتَ ما مصلحتك؟

– لا شيء في الواقع، يهزّ كتفيه ببساطة، لم أشعر برغبة في قول لا.

تصدمني وقاحته، لم يشعر برغبة في قول لا فأمتلك حياة امرأة كاملة بلا مشكلة، والأدهى أنّه ينظر إلي مثل جماد اشتراه، تمامًا كما يراني والدي، جماد باعه.

أنهض من مكاني، أشعر بالغثيان، أحاول الاتّجاه إلى البحر لاستعادة قدرتي على التنفّس، لكنّي أتعثّر على أوّل درجة من درجات السلم الصخري المرتفع.

لا أشعر بنفسي إلاّ وأنا أتدحرج على الدرجات كلها، كان هو يصيح باسمي مندفعًا إليّ، بينما أرقد أنا على ظهري على رمال الشاطئ، أنظر إلى السماء التي لا تزال رفيقة بلا شمس حارقة، إنما يحرقني ألم هائل في ساقي اليمنى، أحاول أن أتحسّسها بيدي فلا أشعر سوى بانثنائها الشديد حول نفسها، لا أستطيع التأوه، أظلّ صامتة لتقتحم رؤيتي وجهها لأوّل مرة.

تطلّ عليّ نادية بوجهها الأسمر الهادئ، تنظر إلى عينيّ بتمعن، ثم تمسد بيدها على ساقي، يلحق بها الباشا متسائلًا عمّا بي، يركع إلى جواري، بينما تستمرّ هي بالتمسيد على ساقي، أفقد الوعيّ أخيرًا.

أستيقظ في فراشي، أعلم أنّني لم أغب عن الوعي سوى دقائق، كان الباشا يقف



بجواري وقد بدا عليه الذعر فعلًا، فكرة فقدان عروسه في شهر العسل بالتأكيد ستدمرّ سمعته.

بجواره تقف نادية هادئة، تستند على ظهر مقعد بكلتا يديها، تنظر إلي دون حديث.

- هل أنت بخير؟ هل تستطيعين تحريك ساقك؟

• أتذكر الألم الرهيب في ساقي لكنّني أدرك أنّه زال الآن، أحركها فتستجيب.

- غير معقول، لقد رأيتها بعيني منثنية تمامًا.

أراه ينظر إلى نادية بشك، تنظر هي لي نظرتها الناعسة التي لا تشي بشيء، تقول سلامتك يا هانم، وتستدير لتبتعد، أتمكّن من ملاحظة عرجها الظاهر في الساق اليمنى.

يخرج الباشا وراءها بسرعة، يعود بعد نصف ساعة بوجه أحمر متحمّس، يخبرني بأنّ نادية تعمل في هذا الفندق شيئًا لا يعرفه، لأنّها هنا دائمًا، وهذه ليست المرة الأولى التي تسترعي انتباهه.

- لِمَ؟

• لا أعرف، إنّها تقرأ الطالع للسيدات، تحدّثهن، وتجلس معهن،



يحبّونها وصاحب الفندق يسمح لها بحرّية التجوّل في المكان طيلة الوقت، تنام في أيّة غرفة تودّها، إنّها من البدو أصلًا لكنّها لا تملك عائلة على حدّ علمي.

- أنت مهتم بها كثيرًا.

• نعم أعتقد أنّها مفيدة لمركزي.

- فيمَ؟

• أيّ فتاة تحبّها النساء تكون مفيدة لمركزي، ثم إنّها أنقذتك.

- أنقذتني؟ كيف؟

يبتسم ويهزّ رأسه.

- أنت لم ترِ ساقك عندما سقطت.

ينهي الحديث عائدًا لسؤالي عن حال ساقي.

كان الباشا محبًّا لجمع كل ما هو فريد وغريب، أيّ شيء بالنسبة له صفقة رابحة، اهتمامه بنادية كان واضحًا، يعرفها جيدًا، ربما يأتي إلى هذا الفندق فقط لمتابعتها.

لكنّني لم أفهم حينها ما أهمية نادية، فهمتها بعد ذلك، عندما أصرّ على أن ترافقنا في رحلة العودة، كان يجلس معها كل يوم مطولًا ليقنعها، يغريها بالامتيازات



والأموال حينًا، وبالعطف والتعامل الرائع حينًا، لكنّها لم تكن تسمع منه شيئًا.

في الواقع كانت تظلّ طيلة الجلسة تنظر باتّجاهي على المائدة البعيدة، وكأنّها تعرف ما أفكر فيه، وكأنّها تقرأني، وتقرأ اضطرابي.

عندما قابلتني ليلة رحيلنا على الشاطئ وحدي، أعلنت موافقتها في الصباح على مرافقتنا.

كنت أجلس أمام البحر على الرمال، أضمّ ركبتيّ إلى ذقني، أحاول استنشاق أكبر قدر من هوائه قبل عودتي إلى المدينة، كان البحر يغسلني، فتمطر عيناي بالدموع، تجلس هي بجواري لتربت على كتفي، لا تسألني عمّا دهاني، لكنّها فقط تربت على كتفي، والغريب أنّني أشعر بالتحسّن.

كانت هذه هي مُهمّة نادية في المركز وفي بيتي طيلة السنوات التالية، أعيش مثل زرعة الصبّار الوحيدة التي حرصت على جلبها من غرفتي في بيت أبي إلى الشُّرفة الخالية في هذه الشقة الكبيرة.

يأتي الباشا ويرحل دون حديث، يلمسني على مضض بين الحين والآخر، فأنام على ظهري متصلّبة لحين انتهائه، أشعر وكأنّني دمية جنس بلا مشاعر، ويشعر هو بالشيء ذاته، أشعر أنّني موصومة رغم أنّه حلالي، أفهم كيف أنّ ورقة لا



تحلّل جنسًا بين اثنين مهما اعترف بها العالم، بينما يُحلّله فقط الحبّ ولو عارضه الجميع.

في اليوم التالي تأتي نادية لتربت على كتفي، ولتخرج آثاره من جسدي، يرسلها لي قبل أن أفكّر في الحزن، قبل أن أفكّر في الانطواء، أو التقوقع، يرسلها لتمسحني تمامًا، لتعيدني امرأة مبرمجة، آكل وأشرب، وأنام وأستيقظ.

أظهر أمام الجميع كزوجة الباشا السعيدة، حتى لا يهتزّ مركزه في مدينة صغيرة تتداول بها الأخبار بسرعة البرق.

أغدق عليها بالملابس، أجلسها إلى جواري لتتحدّث، تحكي لي قصصًا عن الكوافير.

أعرف كل الحكايات التي تمتصّها من الأخريات، أعرف حتى حكاية جيجي، وما يفعله معها زوجي.

أتعاطف معها ومع حُزنها الدفين ومع زواجها الإجباري مثلي حتى لو اختلفت الغاية والكيفية، أكتشف أنّها تطمح إلى موقعي الذي لا أريده.

أتمنّى لو كنت قادرة على التنازل لها عنه، أذهب بنفسي إلى الكوافير لأرى أصحاب هؤلاء الحكايات عن قرب، يجلسني الباشا في مكتبه، بعيدة عن الجميع، يحسبن أنّني آتي لأراقبهنّ خوفًا عليه، فلا يزددن إلا نفورًا.



تعلّمني نادية المسامحة، أتعاطف مع جميع البنات وقِصصهنّ، أكتشف الجوانب الداخلية لكل قصّة، تنقل لي نادية مشاعرهنّ الداخلية التي لا يفهمها أحد، تشرح لي بالتفصيل الشديد ما الذي يعنيه وجود امرأة في هذا العالم، في هذا البلد.

أضع نفسي مكانِهنّ كما تفعل نادية، أتوحّد معهن، أكتشف أنّ العالم مليء بحكايات تفوق حكايتي حُزنًا، ولا تزيدني هذه الحقيقة إلا قُوّة.

أقود سيارتي في الشوارع الضيّقة، أقف في إشارة المرور، أختنق من الهواء المتوقّف رغم أنّنا في بدايات الربيع، أحاول الوصول للكنيسة للتبرّع بالدم كما طالب الناشطون على الفيسبوك.

لا أجد مكانًا لركن السيارة، فأتركها بعيدًا وأسير بتردّد بين الصخب والبشر الذين يتدافعون في كل مكان، لا يعرف الباشا أنّني غادرت بعد دقائق من الانفجار، لم أصدّق المنظر الذي أشاهده على الفيسبوك، لم أصدّق أن يحدث هذا هنا بالذات، كنت أحتاج لرؤيته بعيني، لتقديم أيّة مساعدة أستطيع فعلها.

كان الباب مغلقًا، بينما يحتشد أهالي المدينة أمامه، أفراد الشرطة الذين يجرون في كل مكان، رجال الإطفاء، وأطباء يخرجون بين الحين والآخر بجسد إمّا ملفوف أو حيٍّ ينبض للنقل بسيارات الإسعاف.



أتناول من على الأرض منشورًا أسود عليه وجه المسيح، كُتب عليه «طقس أسبوع الآلام»، وأسأل هل من طقوس أكثر من ذلك؟

كان المنشور مُكرمشًا بفعل يد ظلّت مطبقة عليه رغم الانفجار، ثم تهاوت حين النقل إلى الإسعاف، آثار بصمات من دماء تغطّي وجه المسيح فلا أمسحها.

أضعه في حقيبتي وأعود إلى السيارة، أشغل المكيّف بأعلى طاقة، أحاول إزالة رائحة التراب والدماء، لكنّي أنسى أنّني أحمل بعضًا منها في حقيبتي.

على ظهره كُتِبت آيات من الإنجيل أحاول استبيانها فلا أستطيع، أضعها بجواري على المقعد، ألتفت إليها بين الحين والآخر.

«فَإِنَّهُ هُوَذَا حُزْنُكُمْ هذَا..»

أكاد أتبيّن الجزء الأول من الجملة، أردّده طيلة الطريق حتى العودة، أصعد إلى البيت محطّمة القوى، أظلّ واقفة في الشُّرفة أتابع سيارات الشرطة والمطافئ والإسعاف حتى يحلّ الظلام، تتردّد الموسيقى في ذهني مع الجملة نفسها، فأعود إلى المنشور الذي جفّت عليه الدماء.

«فَإِنَّهُ هُوَذَا حُزْنُكُمْ هذَا عَيْنُهُ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ..»

أركّز في قراءة باقي الآية عندما يرن جرس الباب، أنهض لأفتحه بنفسي،



تدخل نادية وهي تتنفسّ بسرعة، كانت ملابسها مبعثرة، تبدو وكأنّها كانت تركض...

- الباشا موجود؟

• أليس في السنتر؟

- لا، لقد قبضت الشرطة على فلك..

أجلِسُها لأحاول تهدئتها، تقصّ عليّ بكلمات متلعثمة ما حدث مع السيدة فلك.

كنت قد رأيت صورها تُغرِق الفيسبوك وصفحة المدينة، حتى نسى الناس أن انفجارًا حدث منذ لحظات، أناولها كوبًا من الماء، وأسألها عمّا تنوي فعله.

- يجب أن يتوسّط الباشا لإخراجها، لن تتحمّل ثانية في القسم.

أغمض عينيّ بشدة، أتناول الحاسب اللوحي من المائدة، أفتح لها صفحة أخبار المدينة على الفيسبوك لأخبرها بالتحديثات.

- نادية، فلك ماتت، الشرطة صرّحت بأنّهم وجدوها ميّتة في السيارة، لم تصل حتى إلى القسم.

تنظر إلي نادية بعدم تصديق، تدير عينيها في وجهي دقيقة، تتناول منّي الحاسب اللوحي، تتأمّله بصمت، أتركها لما تفعل وألقي نظرة أخرى على المنشور.



«كَمْ أَنْشَأَ فِيكُمْ: مِنَ الاجْتِهَادِ..»

تنهض نادية من مكانها، تتجه إلى الباب كالمسحورين، أناديها فتتوقف:

- لم يكن بيديكِ شيء..

• كان بيدي كل شيء..

- هذا ليس حقيقيًا، أنت واهمة، أنتِ غير قادرة على منح الحياة.

• لكني كنت قادرة على إزاحة الحزن..

- الحزن ضروري للمواصلة..

تستدير لي بعنف، تنظر إلي بعدم فهم، أجتهد لالتقاط أنفاسي، أحاول التحدّث بسرعة في وجهها، أحاول إخبارها بكل ما حضّرته من كلام، أخبرها عن الحزن الذي شممت رائحته اليوم، ورأيته حيًّا متجسّدًا أمامي، في كنيسة لطالما شهدت فرحًا بعد فرح.

- الحزن مجرد محطة، إنّه دفعة يمنحها لنا القدر، لنتمكّن من تحقيق ما لا نجرؤ على فعله.

• هل تقصدّين أنّني أقف في طريق الحياة؟

آخذ نفسًا عميقًا، والآية لا تزال تتردد في رأسي..

«بَلْ مِنَ الاحْتِجَاجِ..»



- بسببك أنا أسيرة هذا البيت، غير قادرة على المطالبة بحريتي، أعلم أنّك تريدين مساعدتي، لكنّي غير راغبة في المساعدة..

«بَلْ مِنَ الْغَيْظِ..»

.. أريد أن أتحرّر يا نادية، أريد أن أتمكّن من المغادرة، وعدم العودة إلى أبي، أريد حقّي، وأريد المطالبة بحرّية الأخريات.

« بَلْ مِنَ الْخَوْفِ..»

..أنا خائفة،أمضيت سنوات في هذا المنزل أفكر في قيمة حياتي، مَنْ أنا؟ ماذا أفعل؟ مجرد جماد ينتقل من ملكية أب إلى ملكية زوج، أنا اختصار جميع القصص التي تحكينها لي كل يوم، أنا القهر مجسدًا، هل تعرفين ما معنى القهر يا نادية؟ تتقدّم نادية خطوات إليّ، تقف أمامي تمامًا، تلمس وجهي بيديها فأبتعد بحركة لا إرادية.

- لا تخافي، أنا فقط ألمسك..

«بَلْ مِنَ الشَّوْقِ..»

.. لقد أتيت إلى هنا من أجلك، رأيت تعاستك في عينيك، فجئت لمساعدتك.

لم أكن أدرك أن هذا البلد يحوي كل هذا الحزن، والأهم أنّني لم أكن أدري أنّني لا أساعد حقًّا..



«بَلْ مِنَ الْغَيْرَةِ..»

- الحق أنّك ساعدتيني، ساعدتيني على معرفة أنّني قادرة، وأنّني أستطيع المواجهة، أستطيع الوقوف بجانب نفسي، أستطيع أن أكون أنا، ولا أن أظلّ مجرد سلعة تُشترَى وتباع، زخرف يزيّن حياة فارغة، آلي يسير بالقوى الدافعة.

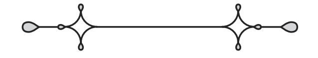
«بَلْ مِنَ الانْتِقَامِ..»

- أنت قادرة على كل شيء. لستِ بحاجة إلى مساعدتي.

تقولها لي وتبتسم، تربت على وجنتيّ للمرة الأخيرة، تستدير نادية لتغادر البيت، تزداد عرجتها ثقلًا، وانحناءً، أشعر بأنّني أريد أن أناديها، أحتضنها، أسحب أنا هذه المرة حزنها، بل أحزانها جميعًا، لكنّي أتجمدّ مكاني..

من أين لكِ يا نادية بمن يستوعب كل هذا الحزن؟ كيف ستتطهرين منه؟

«فِي كُلِّ شَيْءٍ أَظْهَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنَّكُمْ أَبْرِيَاءُ فِي هذَا الأَمْرِ..»





في صباح اليوم التالي، أستيقظ على صوته يغادر البيت متعجلًا، حتى إنّه نَسِي حافظته وعلبة سجائره.

أخرُج إلى الشُّرفة لأجده ينطلق بالسيارة بسرعة لا أعهده عليها، ينقبض قلبي، وأدرك أنّ في الأمر شيئًا.

أقف في الشُّرفة أتابع الناس يخرجون من جديد إلى أعمالهم، الشوارع الصامتة منذ أمس تعود إلى الحياة، الطلاب يتّجهون لدروسهم استعدادًا للامتحانات.

الجميع يسير ناسيًا أو متناسيًا ما قد حدث هنا، متجاهلًا ما سوف يحدث.

أسحب سيجارة من العلبة الملقاة على الأرض بجوار الهاتف، أخرج من جديد إلى الشُّرفة وأشعلها ببط، وآخذ نفسًا عميقًا، أقول لنفسي:



- أغمضي عينيكِ وتشبّثي..

الموسيقى تدوي من جديد، تختلط بها صوت أجراس كنيسة قادمة من بعيد.

تدقّ دقّات بطيئة متقطعة، حزينة تعلن عن موت، أو اثنين، ثلاثة، أو ثلاثين..

أسمع خطواته قادمة من خلفي، متردّدة.. لا تحمل ثقل غروره المعتاد، يقف على بعد مسافات عارمة منّي، رغم أنّي أكاد أشعر بأنفاسه تلحف مؤخّرة عنقي.

يقول:

- نادية ماتت..

أقول:

- طلقني يا باشا..

طنطا

2017-9-28





شكر خاص

لأمي: مديحة العبادي.

لأبي: ناجي صقر.

أخواتي: نهى ناجي- نشوى ناجي.

رويدا محمود- رغدة محمود.

شكر خاص..للأصدقاء الذين شاركوا في مراجعة هذه الرواية وتدقيقها:

محمد هشام عبيه- مروة جمعة- علاء حجازي- أحمد عبد المجيد -د.أحمد الجوهري- ياسمين عادل فؤاد- آيات محمود- غادة عاطف- أسماء خضر.



شكر خاص..للأصدقاء الذين تحملوني في أثناء كتابة هذه الرواية:

-آيات جودت- علياء طلعت- عزة علامة- كاميليا حسين- منار حازم

-ياسمين حمدي- بسنت خليفة- سلمى صلاح- مها أحمد الديب

-نورا طلعت- هبة سالم- محمد حامد.



